دراسات

إنه الخطيب
الأعظم في عصرنا
ريتشارد دوكنز

كريستوفر هيتشنز

الحفلة التي لا تنتهي

ترجمة: حسين رياض

نوفل
للنشر والتوزيع

الحفلة التي لا تنتهي



الحفلة التي لا تنتهي، ت: حسين رياض
الطبعة الأولى ٢٠٢٠

Nabu Publishers
تلفون: ٩٦٤٧٨٠٤٤٢٣٦٢٩+
ص.ب: ٥٠٤٧ مكتب بريد الرشيد، بغداد، العراق
E-mail: info@nabupub.com
التوزيع في العالم العربي: دار التنوير

التصميم والإخراج الفني: وليد غالب

ISBN: 978-614-472-144-5

كريستوفر هيتشنز

الحفلة التي لا تنتهي

ترجمة: حسين رياض

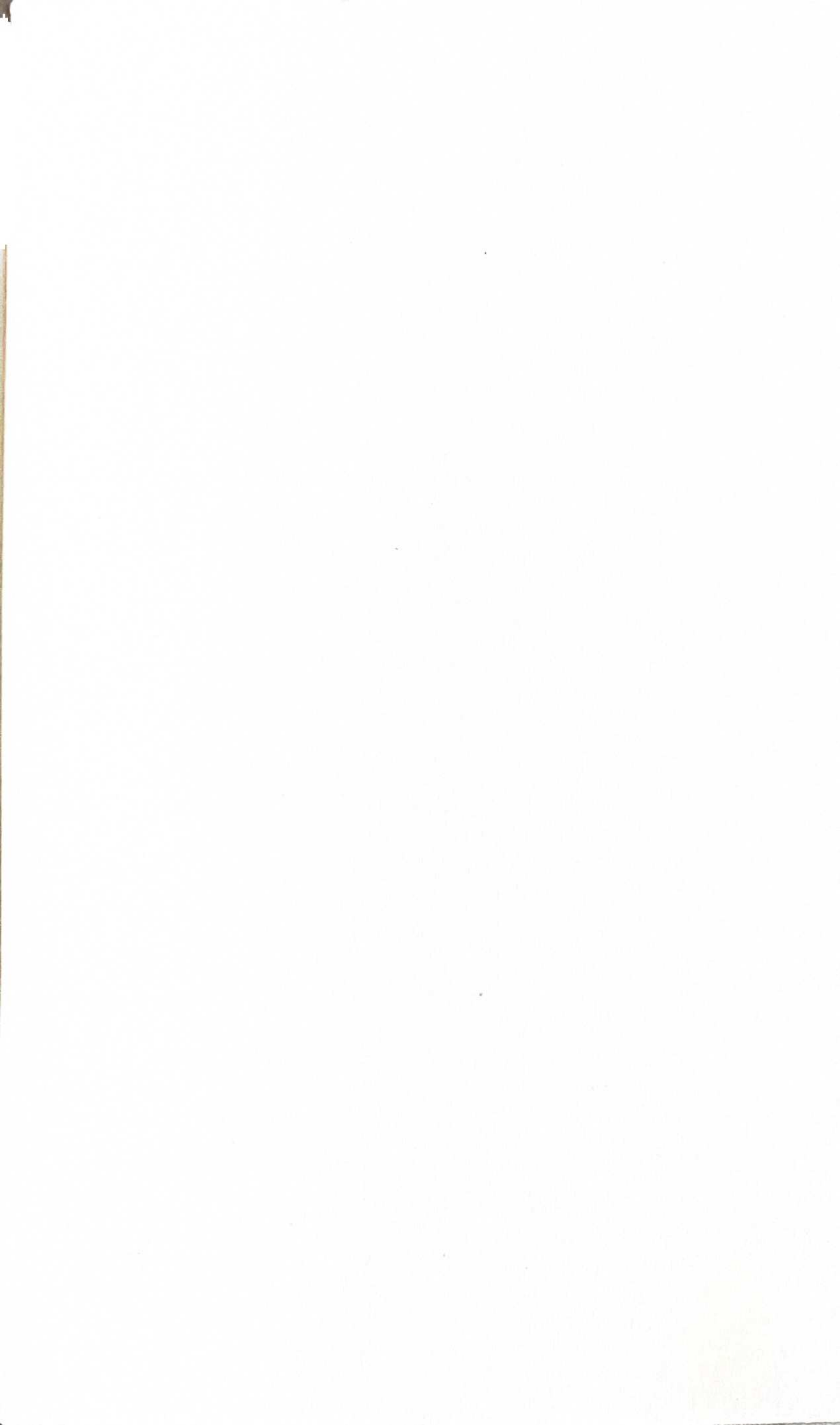




أنا أملك حرية الاختيار بالفعل..

فليس لديّ خيارٌ آخر سوى أن يكون لديّ حرية الاختيار.

كريستوفر هيتشنز



المُقدمة

في السادس عشر من ديسمبر عام ٢٠١١، تصدّر خبر وفاة كريستوفر هيتشنز وسائل الإعلام العالمية كافّة، أذكر أنّ ردود الأفعال انقسمت بين من يلعن روحه، و من تعاطف مع الخبر.

ذكرتُ الفئة التي كانت تشعر بالسقم تجاهه أولًا؛ لأنها كانت الفئة السائدة، كيف لا يكون لهيتشنز أعداء كُثر، وهو أحد أكبر مُزعزعي الأساسات البالية للمُجتمعات الحديثة. لم يُبقِ هيتشنز شيئًا يُشعرنا بالغضب إلّا وواجهه علنًا من دون خوف، كان هو الصوت الشجيّ الذي يصرخ بوجه «الهُراء الهستيريّ» كما كان يصفه.

ما افتقدناه في كِلا الفئتين تقريبًا، هو النظر لكريستوفر هيتشنز بوصفه إنسانًا أولًا، وكاتبًا عبقريًّا يغوص في أعماق الأمور من دون تردد. لم يلتفت أحد لكريستوفر المُخلص لقرّاءه ولعائلته وأصدقائه، كلّ منهم أخذ موقفًا تابعًا للفئة التي ينتمي إليها، بين أصوليّ مُتشدد، وبين من لا مُقدّس لديه.

يكفينا أن هيتشنز كان يتوخى مجتمعًا لا يكوّن أفرادُه آراءهم بناءً على ما يفرضه الآخرون عليهم، أو ما يوهمونهم بأنه حقيقة، وأنهم هُم الفئة الناجية الوحيدة، أما الباقون فهم متآمرون ويحملون مشاعر الغلّ والحقد عليهم.

يولد المرء، ينضج وهو يظنّ أنّ أصعب ما سيواجهه في هذا العالم هو تدبّر أمر المعيشة الكريمة -التي هي صعبة بالفعل- لكنّها ليست الأصعب، فأصعب ما نمرّ به هو تكوين الفكر، في حياتنا نحن أبناء هذا القرن، نواجه شتّى أنواع التضليل وفرض الآراء وقمع الأفكار؛ قمع يهدف لقولبة الكل تحت غطاء الايديولوجيات وأعراف المُجتمع السائدة. ليست هذه دعوة للفوضى والأناركية (اللاسلطوية) بالتأكيد؛ لكنّ تكوين فكرٍ مُستقل هو أحد أسمى درجات الإنسانية.

مثل أجسادنا التي صُممت للعيش بعصور حجريّة، لا يوجد بها تنوّع أطعمة مُصنّعة تُسوّس الأسنان، فإن أدمغتنا هي كذلك تُعاني؛ لأنّها لا زالت تعيش بالإصدار الحجريّ نفسه، لم تُصمّم لتكوِّن حاجزًا نقديًّا بسهولة، أدمغة يسهُل خداعها هو أمرٌ كارثيّ بالنسبة إلىّ أيّ مُجتمع، تصاعدت صناعة الوهم مع تقدّم البشر، فالبشر الآن لا يزرعون طعامهم، بل يصنعونه في مُختبراتٍ تهدف إلى الوصول إلى أقصى مناطق اللذة في الدماغ. إذا كافح الإنسان لهذه الدرجة من أجل تقديم وجبات يُدمن الدماغ عليها مهما كانت تأثيراتها سلبيّة على الجسد، فما بالكم بما يُكافَح من أجله في عالم نشر الأفكار المُراد بثّها في المُجتمع!

هذه دعوة للقراءة بتأنّي، أُقدّم لكم اليوم كاتبًا قلّ المحتوى العربيّ عنه، من يقرأ لهيتشنز سيلتمس مزيجًا من الشجاعة والابتكار، مزيجًا حيّر حتى أعدائه الصريحين -المنطقيين منهم- الذين كانوا يعترفون بكلّ فرصة مُناسبة مُعلنين بأنّه شخصٌ صادق وشُجاع، ليست هذه سيرة حياة كريستوفر هيتشنز؛ بل

هي سيرة وفاته، هي كلّ ما سمحت له لحظاته الأخيرة بتضمينه وتقديمه لنا. حيث يجمع هذا الكتاب المقالات الثمانية الأخيرة التي كتبها هيتشنز ووردت تحت عنوان (الفَناء)، إضافة إلى إحدى أكثر المُحاضرات التي قدّمها تأثيرًا، وبعض ممّا قيل بحقّه وحق أعماله. قد لا يحتوي هذا الكتاب على أهمّ الأفكار التي كتبها هيتشنز وجادل بها، إنّما هو تعريف للقارئ العربيّ، برجلٍ يستحقّ قراءة ما كَتب من أعمدة وكُتب، ويستحقّ وقفة تأمل أمام شريط حياته.

تقول أُسطورة (صندوق پاندورا) في الميثولوجيا الإغريقية القديمة: إن (زيوس) قد أمر بخلق المرأة (پاندورا) بوصفها جزءًا من العقوبة على البشريّة جرّاء سرقة (بروميثيوس) للنار، وأهداها صندوقًا وأمرها بعدم فتحه مهما حصل، بطبيعة الحال، تملّك الفضول پاندورا وراحت تسحب الخيط الذهبي المُحيط بالصندوق لتفتحه، فتُفلت منه كلّ الشرور باتجاه البشر، ظهر الجشع، الغرور، الكذب، الحسد، الوقاحة، الخيانة والمزيد. خرجت كلّ الشرور من الصندوق، إلّا "فُقدان الأمل" استطاعت پاندورا إغلاق الصندوق بوجهه. فتمّ ابتلاء البشر بكل الشرور المعروفة، لكنّهم بقوا يتمتّعون بالأمل. تخيّل لو أنّك فتحت الصندوق، وقفز فُقدان الأمل إلى حياتك، رُبّما يلتصق بوجهك ولا يتركك ترى شيئًا. هذا ما حدث بالضبط مع كريستوفر هيتشنز، وهذا ما حدث مع كثيرين، وهذا ما سيستمرّ بالحدوث؛ سواء كان ما أفقدك الأمل مرضٌ لا علاج له، أم حافلة مُسرعة دهست جسدك وأصابتك بعاهة وأنت في طريقك لاستلام وظيفة أحلامك. قد تكون الكارثة لا تتعلّق بك أنت، كأن تخسر أحدًا مُهمًا في حياتك. خُلاصة القول: ليس الإنسان ذلك الكائن القويّ الذي يتصوّره في نفسه، هو غيرُ مُحصّن تجاه الأزمات، لكنّ أكثر ما قد تحتفظ به النفس البشرية، هو ذاك الأمل الذي يجعل الشخص يهتمّ بفتح عينيه عِند الاستيقاظ، وهو يعرف بأن ما سيواجهه هذا اليوم، ليس بالأمر السهل والهيّن.

فُقـدان الأمـل هو حُكـم صريح بالمـوت، واجه هيتشـنز حُكـم الموت الصريـح، على الرُغم مـن ذلك لم يتداعَ ولم يفقد رجاحـة عقله، أصرّ على أن يعيـش ما تبقى من وقته في الحياة وهو الشـخص نفسـه الـذي نعرفه، بإلهامه للشباب، واهتمامه بالكتابة والحوارات.

في الختـام، أُقـرّ بعـدم وجـود عملٍ مُكتمـل حـدّ المثالية، لكنّنـي بذلت قُصـارى جُهـدي لوضع الإصدار العـربيّ بأقرب ما يُمكـن للرضى. لذلك، أتمنى أن يلتمس القارئ لي العُذر عن أيّ سـهوٍ أو هفوة غير مقصودة، مُتمنيًا لكم قراءة مُفيدة.

حسين رياض

أبريل ٢٠٢٠

بغداد

كيف يُسمم الدين كلّ شيء؟

ندوة لهيتشنز في السادس عشر من أغسطس عام ٢٠٠٧، كانت جُزءًا من «ندوات جوجل» التي أُقيمت بولاية كاليفورنيا الأمريكية، حيث دعت تلك الندوات المؤلفين والعلماء والممثلين والفنانين وصانعي الأفلام والموسيقيين لمناقشة أعمالهم. - المُترجم

شكرًا جزيلًا لكم أيّها السيدات والسادة على حضوركم. أتفهّم أننا حصلنا على ساعة واحدة معًا فقط، لذا سأحاول كسر قاعدة العُمر وأكون مقتضِبًا. أعتقد أنني سأبدأ حديثي على هذا النحو. صحيحٌ أنّ الناشرين يرغبون أحيانًا في وضع عناوين جذّابة وذات إيحاء أو يُفضلّون إضافة عنوان فرعيّ على الكُتب.

حسنًا، كيف ولماذا «يُسمم الدين كُلّ شيء[1]»، كُنتُ على بيّنة بمَ

---

(١) يقصد العنوان الفرعيّ لكتابه الصادر عام ٢٠٠٧: «الله ليس عظيماً: كيف يُسمّم الدين كلّ شيء» - المُترجم

سيحدث لي، سيأتي الناس ويسألونني، تعني كلّ شيء على الإطلاق؟ تقصد حقًا كلّ شيء؟ سيأخذون العبارة بمعناها الحرفيّ. فكّرت، حسنًا، حسنًا. أحد الأشياء التي على المؤلّف أن يعتادها هي عنوانه الفرعيّ اللعين.

لذا، سأُدافع اليوم عن العنوان الفرعي، الذي طرأ لي وأنا آخذ حمّامًا، فكّرت بأن هذا العنوان يشرح نفسه بنفسه. على عكس تلك اللافتة الموجودة خارج مطار ليتل روك الضخم، كانت هُناك لافتة سوداء تستطيع رؤيتها من داخل المطار، مكتوب عليها «يسوع» فقط. كلمة استعملتها أنا، تُمثّل اسمًا أعرفه ولكن وضع الكلمة هكذا يبدو أنه يُخبّئ القليل والكثير في الوقت نفسه، أتفهمون مقصدي؟ حسنًا، إليكم كيف أن الدين هو المُسبّب لهذا الشعور ويؤثّر عليه، في رأيي: إنه مُستمد من طفولة جنسنا البشريّ، من الحقبة التي كان يقضيها البشر بين الخوف والحيرة. تلك الفترة التي لم نكُن نعرف أننا نعيش على كوكب كرويّ وندور حول الشمس وأن السماء لم تكُن قُبّة، حينها كُنا نظّن أننا نعيش على قُرص مُسطّح، لم نكُن حينها نعرف أن هُناك جراثيماً تُفسّر سبب إحساسنا بالمرض، لم نكن نعرف بعد النظريات التي لا حصر لها وتُفسّر أشياء مثل المجاعة. تأثّرنا بالدين له تأسّل رجعي رجعيّ للوقت الذي لم نكُن فيه نمتلك إجابات جيّدة، نحن حيوانات تبحث عن الأنماط المُتشابهة، وهو الشيء الجيّد فينا، لكنّنا نُفضّل نظرية المؤامرة أو نظرية سيئة على عدم وجود نظريّة على الإطلاق، وهذا هو الشيء السيء فينا. الدين كانت مُحاولتنا الأولى لمُمارسة الفلسفة، كما كان بشكل ما مُحاولتنا الأولى لممارسة العلوم. محاولاتٌ تمّ تأسيسُها بالكامل على أساس سوء فهم كامل حول الأصول والمناشئ، من الكون أولًا وصولًا إلى الطبيعة البشرية. نحن الآن نعرف كثيراً حول أصل الكون وكثيراً أيضًا حول طبيعتنا نحن البشر. لقد حصلت للتوّ على تسلسل حمضيّ النووي من ناشيونال جيوغرافيك.

أُشجّعكم على فعل ذلك بالمناسبة. من المُهم جدًا معرفة كيف أن هذا الإنجاز العلميّ الاستثنائي سيقضي على العُنصريّة والخلقيّة[٢]، عن طريقه ستعرف مدى قرابتك من كلّ البشر الذين وُلدوا في أفريقيا، كذلك ستُزيد من إحساسك بالارتباط بكلّ أشكال الحياة الأُخرى، لا أعني باقي الحيوانات أيضًا، بل النباتات كذلك. ستكون لديك فكرة أفضل عن انتمائك للطبيعة وكونك جُزءًا منها، حينها ستعرف كيفّ أن هذا الشعور وحده هو أمرٌ جلل.

علّمنا كُلّ من ستيڤن هوكينج وستيڤن واينبرج وكثير غيرهم من عُلماء الفيزياء العُظماء، كميّة معرفة هائلة حول ما يُسميه البروفيسور واينبرج، ويضعه عنواناً لكتابه «الدقائق الثلاث الأولى»، مفهوم الانفجار العظيم. يُمكننا أن نؤكّد أن هذا الكون، لم يحتج إلى ما يُحرّكه - وهو لا يزال يتحرّك الآن ويتمدّد بعيدًا بسُرعة كبيرة - ولا هذا الدهر التطوري الذي يمتد لمليار سنة، لم يتمّ تصميم كلّ شيء بهدف أن نلتقي نحن في هذه الغُرفة، نحن لسنا هدفًا لخُطط مُسبقة. هاتان الخُطتان لا تعلمان بوجودنا هُنا. كما يؤسفني أن أقول، لن يهتّم الكون ولن يعرف في حال انقرضنا نحن. علينا أن نواجه ما نحن فيه وحدنا، بمُساعدة الثقافة والمُعدّات الفكرية والأخلاقية التي اكتسبناها أو التي حصلنا عليها أو التي كانت بمثابة هبة فطرية لنا.

إليك طريقة أُخرى يُسمم فيها الدين الأمور. فهو يقول، حسنًا، دعونا نكذب على أنفسنا بدلًا من ذلك، لمَ لا نتظاهر بأننا خالدون ولا نموت؟ أو أن نحصل على استثناء في حال قُمنا بتقديم الكفّارات والقيام بحركات جسدية صحيحة. لمَ لا نتظاهر بأن أشياء مثل الأمراض الحديثة - التي يُمكننا الحصول على تسلسل الحمض النووي الخاص بها الآن - مثل الإيدز، ما

---

(٢) الخلقيّة: تصوّر ديني تشترك فيه الأديان الإبراهيمية بأن الإنسان والحياة والأرض والكون أيضًا نشأ نتيجة إبداع رباني إلهي من قبل الخالق. - المُترجم

هي إلّا عقاب على الفجور والزنا؟ لِمَ لا نستمرُ في خِداع أنفسنا حول وجود مُشرف سماويّ على كلّ شيء، حيث إن ذلك سيقضي على الشعور بالوحدة ورُبما سيقضي على التساؤلات وشعورنا بعدم الأهمية كذلك. بعبارة أُخرى، لماذا لا نُقلع عن الشغف بالتفكير؟ برأيي هذا يُسمّم كُلّ شيء على الفور. إنه يُهاجم الغايات الأساسية التي نحتاجها لطرح الأسئلة الدقيقة والبحث عن الأدلّة التي نحتاجها من أجل البقاء والاستقرار والمُضيّ قُدمًا.

ليس الأمر مُجرّد مُصادفة عندما يتمّ تحقيق أيّ مُنجز علميّ، يتمّ الاعتراض عليه من قبل المُعارضة الدينية بحجّة رفض العبث بخلق الله. افترض أن أحدث وأخطر اعتراض هو مُحاولة إيقاف البحوث العلمية التي تستخدم الخلايا الجذعية. لكن أيّ شخص بإمكانه التفكير في جميع أنواع البحوث العلمية الأُخرى، الطبيّة منها على وجه الخصوص، والتي قادت إلى اضطهاد دينيّ انتقاميّ.

ثالثًا: إنه هجوم، أعتقد أنّه هجوم بوجه كلّ ما هو مُهم جدًا بالنسبة إلينا، أخلاقنا الفطرية. إذا كانت هُناك نُقطة أحصل عليها أكثر من غيرها عند النقاش مع المُتديّنين، فستكون: ما هو مصدر الأخلاق إن لم يكُن هُناك إله؟ في الواقع، إنّه سؤال قد تمّ طرحه في رواية دوستويفسكي الرائعة، الإخوة كارامازوف. يقول أحد الإخوة (سمارديا كوف) الذي كان هو الشرير والمُفسد، قال: إذا مات الله، أليس كُلّ شيء مُباحاً؟ أين ستكون أخلاقنا إذا لم يكُن هُناك واجب رقابيّ؟

أجد هذا، مرّة أُخرى، إهانة عميقة لنا بعُمق شخصيّاتنا وطبيعتنا. أؤكّد لكم أننا لا نمتنع عن الذبح والسرقة واغتصاب بعضنا بعضاً الآن فقط بسبب الخوف من العقاب الإلهيّ أو الطمع بمكافأة منه. إنها قاعدة دنيئة ومُهينة للناس.

بعـض أجدادي من جهة أمّي يهود، أنا لا أؤمن بقصّة موسـى في مصر، ولا قصة سـيناء. في الواقع حتى الدراسات الأركيولوجية الإسرائيلية أقرّت بعـدم وجود أيّ حقيقة تُذكر في تلك القصّة أو غيرها. ولكن لنفترض جدلًا أنها حقيقية، هل يعتقدون بأنني سـأصدّق أنّ أسلاف أُمي، وصلوا إلى سيناء عبر رحلة شـاقّة. وهُم عـلى الظن بجواز الاغتصاب والقتل وشـهادة الزور قبـل أن يصلـوا إلى هنـاك، قبـل أن يُنبّئهم موسـى عند سـفح الجبـل بأن كلّ هـذه الأفعـال مُحرّمة! لا أظـنّ ذلك! أعتقد أننـا نملك تفسـيرًا أفضل وأكثر رُقيّـاً.. بأنـه لا يُمكـن لأيّ أحـد الوصول لجبـل موسـى ولا لأيّ جبل آخر في أيّ اتجّـاه، إلّا لو كانـوا يعرفون بالفعل أنّ الترابط الإنسـانيّ يُحتّم علينا أن نعتنـي ببعضنـا بعضاً بوصفنـا إخوة وأخـوات، وأن نمنع أفعـالًا مثل القتل والاغتصاب وشـهادة الـزور والسرقة. إن هذا الأمر فطـريّ فينا. إن لم يكن الأمـر كذلك، فالمعـادون للمجتمع الذين لا يفهمـون حاجات أحدٍ غيرهم والمعتلّـون اجتماعيًـا (Psychopaths) الذيـن يجـدون المُتعـة في خرق تلك القوانين، يُمكننا أن نقول بحسب إحدى النظريات بأنّهم قد خُلقوا على هيأة الرب كذلك، مما يجعل التسـاؤل بشـأن هيأة الرب أمرًا صعبًا، أليس كذلك؟ أو يُمكننـا تفسـير حالاتهم بالمزيـد من الأبحـاث الجيدة والاسـتمرار بكبح أهوائهـم وتهذيبهم. لكنّ الديـن هُنا لم يُقدّم أيّ نوع من المُسـاعدة، لم يُضف لأخلاقنا أو قِيمنا كما يدّعي.

أخيرًا، سـأقول.. ليس آخرًا بالطبع أنا لم أنتهِ بعد، لا تسترخوا! السؤال حول السـمّية الموجودة، يوجد اندفاع حقيقيّ نحو شيء سـام جدًا لمجتمعنا الإنسـانيّ وعلاقاتنا ببعضنـا بعضاً. إنّه الخوف من الحريّـة، الرغبة بأن نكون عبيـدًا، الرغبة بتلقي الأوامر. نحن الآن يسـهل علينا كلنا، أن نؤمن ونعيش تحت قوانين وتشريعات مكتوبة. تُشجّعنا على الاعتقاد بأن حقّنا الرئيس منذ

الولادة، بأن أغلى ما نملك؛ هو حريّتنا، أن نكون أحرارًا، أن لا نكون مُكبلين بالقيود. كذلك نعرف للأسف، بأن من فطرة البشر هو التذلّل والخنوع، الرغبة بأن نكون مُسيّرين، إبداء الإجلال أمام الزعماء الطُغاة الذين يبطشون بنا. إن هذا العنصر الآخر المُنحط يجب أخذه بالنظر، وهو يُسبب كثيراً من المشاكل حول العالم في أثناء حديثنا هذه اللحظة.

الدين في نظري، هو خلاصة الرغبة البشرية بالعبودية والخنوع، هو تجسيد لأمنية أن يكون المرء عبدًا خاضعًا. اسأل نفسك إن كُنت حقًا تتمنى وجود دكتاتورية سماويّة، تُراقبك مُنذ لحظة ولادتك، بل منذ لحظة الحمل بك، طوال حياتك، ليلًا ونهارًا، تُشرف على أفكارك، نائمًا كُنت أم مُستيقظًا، بل وأيضًا بإمكانها إدانتك بالجرائم الفكرية، إنه التعريف المُطلق للدكتاتورية! بإمكانها إدانتك بسبب ما تُفكر به أو تُريده في قرارة نفسك. تبقى هكذا تحت الرقابة الدائمة والسيطرة والإشراف، ولا تعتقك حتى بعد الموت؛ لأنه حينها يبدأ المرح الحقيقي.

سؤالي الآن، من يرغب بأن يكون ذلك حقيقة؟ من يود أن يقضي حياته تحت رحمة العبودية في كوريا الشمالية؟ لقد زُرت كوريا الشمالية، أنا من الكُتّاب القلائل الذين سافروا لكوريا الشمالية. في الواقع أنا الكاتب الوحيد الذي زار دول «محور الشر[٣]» الثلاث جميعها (إيران، العراق وكوريا الشمالية). يُمكنني أن أؤكد لكم أنّ كوريا الشمالية هي إحدى أكثر الدول التي زُرتها تديّنا. اعتدت أن أتساءل وأنا طفل، كيف سيبدو الأمر في مكان يُمجّد فيه الرب طوال الليل والنهار؟ الآن صرت أعرف، فكوريا الشمالية دولة قائمة

(٣) محور الشر: تسمية أطلقها الرئيس الأمريكي الأسبق (جورج دبليو بوش) في أثناء خِطاب ألقاه في يناير عام ٢٠٠٢، وصف به حكومات الدول الثلاث المذكورة، بأنها محور الشر في العالم وتسعى لشراء وتصنيع أسلحة الدمار الشامل. - المُترجم

علـى العِبادة، إنّها قائمة من أجل العِبادة فقـط. معبودها ينقصه واحد ليكوّن الثالوث المُقدس الخاص بهم. لديهم الأب والابن كما تعلمون، الزعيم القائد والزعيم العظيم. لا يزال الأب رئيسًا للدولة وقد مات منذ خمسة عشر سنة. لكـن كِم جونغ إل الصغير[٤] هو مجُرّد رئيس للحزب والجيش، لا زال والده رئيسًـا للدولة، ما يوجد في كوريا الشـمالية بالإمكان تسميته بالنيكروقراطية (الموت - قراطية)، أو كما أُسـميه حُكم الموتى، ينقصهم شـخصٌ واحدٌ فقط ليُكملـوا الثالوث المُقـدس، لديهم الأب والابن، لكن ربـما لا وجود للروح القـدس؛ لكنّهـم يدّعون أن الطيـور قد غنّت باللغة الكوريـة ابتهاجًا بولادة الابـن. لقـد تأكدت من هـذا الأمر وهو لم يحـدث. خذوا كلمتـي، لم يحدث هـذا الأمر. يجب أن أذكر أيضًا أنهم لا يهددونك بالملاحقة حتى بعد موتك، يُمكنك الخروج من كوريا الشـمالية، يُمكنك الهروب من جنّتهم وجحيمهم عندما تموت. لكن لا يُمكنك ذلك في المسـيحية والإسـلام. هذه هي الأمنية بـأن يكـون المـرء عبدًا، مـن وجهة نظـري هي سُـمّ يُصـبّ عـلى العلاقات الإنسانية.

سـأحاول اختصار ثرثرتي، يُجادل بعضهم، بأن هُنـاك متديّنين قد قاموا بأعـمالٍ عظيمـة، وأن إيمانهـم هو ما دفعهـم لفعل ذلك. أكثـر الحالات التي وجدتهـا تُذكر في هذا المثال هو الدكتور مارتن لوثر كينغ[٥]، الذي أعلم أنني لسـت بحاجـة لتعريفكم بـه. حقيقتان سريعتـان حوله: أولًا: لقد كان قسًّـا

---

(٤) توفّي هو الآخر عام ٢٠١١. - المُترجم

(٥) مارتن لوثر كينغ: زعيم أمريكيّ من أصول إفريقية، وناشط سياسّي، كان من المطالبين بإنهاء التمييـز العنصري ضد السّـود في عـام ١٩٦٤ م حصل على جائزة نوبل للسـلام. اغتيل في أبريل عام ١٩٦٨، عُدّ من أهم الشخصيات التي ناضلت في سبيل الحرية وحقوق الإنسان. - المُترجم

حقيقيًا، كان يدعو بسِفر الخروج[٦]. ويستعمل قصّة الشعب المنفيّ المُستعبد والمُضطهد بوصفها نوعاً من الأمثلة. لكنّه لو كان يعني فعلًا ما يقوله، لكان بيّن الشعب المُضطهد كما يصفهم سِفر الخروج، كان من الجائز لهم أن يقتلوا أيّ شخصٍ يعترض طريقهم. وأن ينهبوا أراضيهم وممتلكاتهم ويستعبدوا نساءهم ويقتلوا أطفالهم، ويُمارسون القتل الجماعي تجاههم بالإضافة إلى الاغتصاب والتطهير العرقيّ والنهب القسريّ للأراضي. هذا ما يقصّه علينا سِفر الخروج، تدميرٌ كامل للعشائر الأخرى، من حُسن الحظ أن الدكتور كينغ كان يستعمل الكتاب المُقدّس بوصفها نوعاً من المجاز أكثر الأحيان. في الواقع كان يستعمل الكتاب الوحيد الذي كان مُتأكدًا بأن جمهوره قد قرأوه. أما ثانيًا: فطوال فترة حياته كان قد هوجم؛ لأن لديه كثيراً من الأصدقاء العلمانيين واليساريين واللادينيين، أشخاص مثل العلماني الأسود الشهير (بايرد رستن) و(فيليب راندولف) وغيرهم. هؤلاء هُم الرجال الذين نظّموا المسيرة إلى واشنطُن[٧].

مما يقودني إلى مُلاحظتي الثالثة: إنه تحدٍ أوجدته في أثناء المُناظرات مع حاخامات وقساوسة من شتّى المستويات، ومع أئمّة أيضًا، أيضًا -أعلم أن هذه الجملة ستبدو كأنها نُكتة داخل حانة- ولكن مرّة أيضًا مع راهبة بوذيّة

---

(٦) سِفر الخروج: أحد الأسفار المقدسة لدى الديانة اليهودية والمسيحية، يصنف هذا السفر بوصفه ثاني أسفار العهد القديم التناخ؛ ولا يوجد خلاف حوله بين مختلف الطوائف المسيحية أو اليهودية حول قيمته المقدسة. يتحدّث هذا السفر عن كيفيَّة نجاة بني إسرائيل من استبداد وظلم وبطش فرعون مصر واستعباده لهم. - المُترجم

(٧) مسيرة الحقوق المدنية إلى واشنطن: أو المسيرة إلى واشنطن أو المسيرة الكبرى إلى واشنطن حدثت في أغسطس ١٩٦٣ في واشنطن العاصمة بهدف الدفاع عن حقوق الأميركيين الأفريقيين المدنية والاقتصادية. ألقى مارتن لوثر كينغ في هذا الحدث وهو يقف أمام نصب لنكولن التذكاري خطابه التاريخي المعروف باسم "لدي حلم" الذي دعا فيه إلى وضع حدٍ للعنصرية. - المُترجم

في ولاية ميامي، سألتهم جميعًا، إليكم التحدي: عليك أن تُخبرني بقول أول فعلٍ أخلاقيّ، قاله أو عمله شخصٌ باسم الدين، ولا يُمكن أن يقوله أو يفعله شخصٌ لادينيّ. حتى الآن قدّمت هذا التحدي إلى أصحاب مراتب عُليا من المُتديّنين، ولم يُجبني أحدهم، لم يستطع أحدٌ إيجاد ما أُريده.

إن كان الأمر كذلك، فيُمكننا أن نقول إن الإيمان ليس شرطًا، بينما لو قُمت بسؤال أيّ شخصٍ في هذه القاعة أن يفكّر بقولٍ آثم تمّ ذِكرُه أو عملٍ شرّير تمّ فعله، من قِبل شخصٍ مُتديّن وقام بفعلته هذه باسم الدين، فلن يتردد أيّ شخص لأكثر من ثانية حتى يتذكّر إحداها، أليس كذلك؟ من المُثير للاهتمام مُلاحظة مقدار قُرب هذا من الحقيقة. هل يستمع أحد هُنا لبرامج (دينيس بريغر)؟ إنّه مُذيع مسيحيّ مُختلف قليلًا. أو عليّ أن أقول مُذيع مُتديّن، فهو أقرب لليهودية من المسيحية، هو مُذيع (يهو-مسيحيّ) يستضيفني بكرم في برنامجه أغلب الأحيان. سألني في إحدى المرّات، قدّم لي تحديّه الخاص. قال لي: «تخيّل أنك تسير في مدينة لم تزُرها من قبل، في وقتٍ متأخر من الليل، لا تعرف أحدًا من الأصدقاء في هذه المدينة وقد بدأ الظلام بالحلول. ثمّ عبر الظُلمة تلمح جماعة من الرجال مُقبلين نحوك، لنقُل إنّهم عشرة. أستشعر بشعور جيّد أم سيء إن علمت أنهم قد قدموا للتو من صلاة جماعيّة؟

كان هذا سؤال السيد (بريغر) إليّ، فأجبته: حسنًا سيد بريغر لو اقتبسنا فقط الحرف (ب) فسأكون قادرًا على إعطاءك إجابة كافية، لقد مررت بهذه التجربة، في بلفاست، بيروت، بغداد، بومباي، البوسنة وبيت لحم. وإن لمحت أحدًا قادمًا من طقوس جماعية دينيّة هُناك، ستعرف تمامًا.. مقدار السُرعة التي يجب عليك أن تجري هاربًا بها، ولا يحتاج أيّ أحد ليقول لكم لماذا، ولا يجب عليّ تضييع أيّ وقتٍ في شرح السبب، أليس كذلك أيها السيدات والسادة؟

لذلك، أؤكد لكم أن المُتديّنين، هُم من عليهم تقديم التفسير وصُنع

التبريرات. إن لم يكونوا قادرين على تفسير نشوء الكون وأصل نوعنا البشريّ، إن كانوا يدّعون تلاشي الأخلاق من دونهم، ويتصوروننا مثل حيوانات مُجرّدة من دون إيمان. أيضًا، إذا كان كلّ واحد قادراً على الاتيان بحادثة جعل الدين فيها الناس اسوأ تجاه بعضهم بعضاً. وأن يكونوا مُعرقلين للتقدّم المعرفيّ والعلمي والمعلوماتيّ، أؤكد لكم أن البيّنة والحجّة في هذه القضية، تقع عليهم هُم، لا عليّ أنا.

نحن نمتلك إرثًا أفضل، لسنا مُجرّد علمانيين ماديين مُقفرين، يُمكننا أن نلتقط صورًا باهرة ومُهيبة وتبعث للذهول باستخدام تليسكوب (هابل) للأطراف البعيدة في كوننا. من سيترك النظر لتلك الصور ويلتفت للتحديق بشُجيرة موسى المُحترقة؟ لدينا مجاهر يُمكننا أن ندرس بها إعجاز اللولب المزدوج للحمض النووي وجماله البالغ. العالم الطبيعي رائع بما فيه الكفاية، إنه أروع من أيّ قصّة يستحضرها المغفّلون الذين يؤمنون بالتنجيم وخوارق الطبيعة. كما أننا نمتلك تاريخًا سياسيًا أفضل، ضدّ الباباوات والأئمة والمشعوذين والحق الإلوهيّ للملوك. ضدّ التاريخ الطويل من القمع المدني تحت راية الدين في ما يُعرف باسم الدول الثيوقراطية[٨].

لقد أوجدنا الولايات المُتحدّة، الدولة الوحيدة في تاريخ العالم، مكتوب على مُستنداتها التأسيسية، بأنّها تعمل وفق مبدأ تحرير البشر. والدستور الوحيد في تاريخ العالم الذي يأمر بالفصل بين الكنيسة والدولة، لم يُذكر الرب نهائيًا في دستور الولايات المُتحدة إلّا بغرض رسم حدود للدين ولإبقائه خارج السياسة وإخضاعه لسيطرة القانون. وصف الرئيس (توماس جيفرسون[٩])

---

(٨) الثيوقراطية: تعني حكم الكهنة أو الحكومة الدينية. - المُترجم

(٩) أحد الآباء المؤسسين للولايات المتحدة الأمريكية، كتب إعلان الاستقلال عام ١٧٧٦ وكان ثالث رئيس للولايات المتحدة الأمريكية، كان متحدثاً باسم الديمقراطية، نادى بمبادئ

- والذي قُمت بكتابة إحدى سيِره الذاتية -، وصف هذا الإنجاز في رسالة موجّهة إلى المسيحيين المعمدانيين في مدينة دانبري بولاية كونيتيكت، بعد أن أبدوا له خشيتهم من الاضطهاد الدينيّ. بالمناسبة، من تظنون الجهة التي كان معمدانيو (دانبري) يخشون الاضطهاد الدينيّ منهم؟ إنّهم الأبرشيّون في (دانبري). يميل الناس لنسيان كيف كان الأمر، وأن يروا كيف كان المسيحيون يحبّون بعضهم بعضاً، كيف حاولوا إعادة الشغف الأوروبيّ بقمع طائفة دينيّة أُخرى وتعذيبها. كما تعلمون على الأغلب، فإن الرئيس كتب لهم وردّ عليهم قائلًا: «لا، أؤكد لكم أن هُناك جداراً فاصلاً بين الكنيسة والدولة في هذا البلد».

لذا، لديّ شعارٌ جديد سأشاركه في خطاباتي، وأدعوكم أن تشاركوني به: «سيد جيفرسون، ابنِ ذلك الجدار[١٠]»

شكرًا جزيلًا لحضوركم.

الجمهورية وحقوق الإنسان، وكان له تأثير عالمي واسع. - المُترجم

(١٠) في إشارة للتحدي الذي وجهه رونالد ريغان (رئيس الولايات المُتحدة ١٩٨١-١٩٨٩) لميخائيل غورباتشوف (السكرتير العام للاتحاد السوفييتي). العبارة المشهورة كانت "اهدم هذا الجدار"، المعروف أيضًا باسم خطاب حائط برلين، كان خطابًا ألقاه رونالد ريغان في برلين الغربية في يونيو ١٩٨٧. دعا فيه ميخائيل غورباتشوف، إلى فتح جدار برلين، الذي فصل برلين الغربية والشرقية منذ عام ١٩٦١. الاسم مشتق من سطر رئيس في منتصف الخطاب: "يا سيد غورباتشوف، افتح هذه البوابة، يا سيد غورباتشوف، اهدم هذا الجدار!" - المُترجم



الحفلة التي لا تنتهي

سيحدث هذا لنا كلّنا، ستتم الطبطبة على كتفك في لحظة مُعيّنة ويُقال لك: إن الحفلة لم تنتهِ، لكن الخبر أسوأ من ذلك بقليل..

الحفلة مُستمرّة لكن عليك المُغادرة، ستستمر هذه الحفلة من دونك.

هذا هو التفكير الذي أظنّ أنه يُزعج مُعظم الناس عندما يفكرّون بموتهم.

حسنًا؛ لأنّه قد يُشعرنا بشعور أفضل؛ لندعيّ عكس ذلك..

ستتمّ الطبطبة على كتفك ويُقال لك.. بُشرة خير! هذه الحفلة ستستمر إلى الأبد، ولا يُمكنك أن تُغادرها.. يقول المسؤول: إنّ عليك البقاء ويُصرّ عليك بأن تستمتع بوقتك.

الأب الذي تُقدّمه الأديان التوحيدية، هو الأب الذيّ لا يموت، الذي يُطمئن أبناءه، لا تقلقوا، لن تروا نهايتي، لن أترككم، لن تسنح لكم الفرصة للشعور بالأسف عليّ، أنا موجود دومًا، أنا الكامل المُطلق في الدكتاتوريات، في محاكمي لا يوجد استئناف.

أتظـنّ حقّـا ان هـذا المبـدأ قـادر على رفـع معنويات شـخصٍ لديـه أيّ إحساس أو مشاعر إنسانية أو حتى القابلية على فهم السخرية؟

أجد هذا الأمر غير واردٍ.



الفَناء

I

جرّبـت الاسـتيقاظ و أنا أشـعر بشـعور سيء جدًا ويُشـبه المـوت أكثر مـن مرّة؛ لكن هذا لم يكنْ كافيًا ليجعلني مُسـتعدًا لذلـك الصباح الباكر من شـهر حزيران (يونيو)،اسـتيقظت حينها وشـعرت بأنني محجوز فعلًا داخل جُثتـي، بدا لي بأن التجويف الموجود في صـدري قد تمّت إعادة ملئه بالكامل بالأسمنت الذي يجف ببطء، كان بإمكاني أن أسمع أصوات تنفسي من دون أن يكون باسـتطاعتي نفخ رئتـيّ بالهواء، كان قلبي ينبض بشـدّة تارة وببطء تـارة أُخـرى، أيّ حركـة مَهما كانـت طفيفة، كانـت تتطلب كثيرًا من الجُهد والتخطيط. اسـتغرق مني الأمر جُهودًا مَضنيّـة للتحرّك داخلَ غرفة الفندق في نيويورك لكي أطلب النجدة وخدمات الطوارئ.

وصلوا بسرعة البرق وتصرفوا بمهنية واحترافية عالية، كان لديّ وقتٌ كافٍ لأتسـاءل لمَ قد يحتاجون إلى كلّ هـذه المُعدات الاحتياطية مثل الأحذية الكبيرة والخوذ. الآن، وأنا أتذكر المشهد بأثر رجعي، بعد أن اضطرّوا للقيام بكثير مِن الإسعافات الطارئة لقلبي ورئتيّ. أعطاني الأطباء بعض البطاقات،

وأخبروني بأنّ محطتي الطارئة القادمة يجب أن تكون لدى اختصاصيّ الأورام، كان هناك بعضٌ من الظلّ الغامق يرمي بنفسه بكلّ سلبية في الأجواء.

في مساء اليوم السابق، كُنت قد أطلقت كتابي الأخير في حدثٍ ناجح في نيو هيڤن بولاية كونيتيكت، أما في الليلة التي لحقتْ هذا الصباح الرهيب. كان مِن المُفترض أن أذهب للقاء في برنامج «The daily show» الذي يُقدمه جون ستيوارت، ثمّ إلى حدثٍ في شارع ٩٢ لحديث مع سلمان رُشدي، انقضى وقت إنكاري القصير على الشكل الآتي: لن أُلغي لقاءات مُهمّة كهذه، لن أُخيّب ظنّ أصدقائي ولن أفوّت الفُرصة ببيع مجموعة من الكتب. استطعت أن أظهر في الحدثين من دون أن يُلاحظ أحدٌ أن هُناك شيئًا خاطئًا فيّ، على الرُغم من أنني قد اضطررت للتقيّؤ مرتيّن مع تصاعد مزيج غير اعتيادي من الدِقة، الإتقان، القسوة والوفرةُ في الكلام قبل كلّ حدث. كانت تِلك الأفعال تعدّ الأفعال المُعتادة لمن يسكن بلدًا مريضًا ولا يزال متمسكًا بيأس بموطنه القديم الذي يُشعره بالحنين.

الأرض الجديدة هذه التي قد وطأتها قدماي، تبدو مُرحّبَة بي، يبتسم الكل فيها وتسود بها روح المساواة وتختفي فيها العُنصرية، مِن الواضح أن من يُديرها هُم أشخاص قد وصلوا إلى الإدارة عبر العمل الجاد وجدارتهم بالمنصب.

ونقيضًا لهذا، لا توجد لمسة فُكاهية كافيةٌ ولا حديث كافٍ عن الجنس. أما المطبخ فقد كان الأسوأ من أيّ مكان حللتُ به سابقًا، لدى هذا البلد لغةٌ خاصّةٌ بِه، لُغة مُشتركة بين من يقطنه وهي مُملة وصعبة في آن واحد، تحتوي على أسماءٍ كثيرة على سبيل المثال: أوندانسيترون - الدواء الذي يُعطى لِمنع الغثيان الناجم عن العلاج الكيميائي للسرطان - بالإضافة إلى بعض الإيماءات وحركات اليد المُقلقة التي تتطلّب بعضًا من الوقت للتعوّد عليها

وفهمها بسهولة، على سبيل المثال قد يلتقي بك أحدهم لأول مرّة ويغرس أصابعه فجأة في رقبتك! هكذا اكتشفت أن سرطاني قد انتشر ووصل إلى العُقد الليمفاوية وأنّ أحد هذه العُقد المُشوّهة موجودة على عظم الترقوة من جهة اليمين، كانت كبيرة ومتضخّمة بما يكفي لتبدو واضحة وقابلة للتحسّس. هذا الأمر لا يُبشّر بخير أبدًا، أعني أن يكون السرطان «واضحًا» ويُمكن رصدُه بسهولة من خارج الجسم، ولاسيما أنهم لم يعرفوا بعد أيّ عضوٍ كان المصدر الرئيس للورم، سرطانٌ يعمل بمكرٍ ويشق طريقه من الداخل إلى الخارج، التشخيص والعلاج يعملان ببطء، كثيرٌ من الإبر تم غرسها في منطقة الترقوة لأخذ خُزعة، التي قد تتأخر أسبوعًا قبل أن تظهر نتائجها.

بعد أن تجاوزتُ الأخبار حول موضوع الخلايا الحُرشفية المليئة بالسرطان التي كشفت عنها النتائج الأولية للخُزعة، تطلّب الأمر وقتًا أطول لاكتشاف الحقيقة المرّة، كانت أول عبارة لفتت انتباهي في التقرير هي «خلايا سرطانية مُهاجرة»، كانت تِلك الخلايا الدخيلة قد احتلت جُزءًا من رئتيّ وبعضًا من عُقدي اللمفاوية، أما عن قاعدة عملياته الرئيسة الذي يبدو أنهُ قد احتلها منذ فترة طويلة فكانت في المريء. مات والدي بسرعة شديدة بسبب سرطان المريء وكان عمره تسعة وسبعين عامًا، لا يزال عُمري أنا واحدًا وستين، يا لها من حياة هذه التي أصبحتْ فيها أنا بسباق ناحية الموت وقد تصدّرت الفائزين فجأة.

***

إن نموذج (كيوبلر روس) الذي يصف تحوّل المرء مِن مَرحلة الإنكار إلى مرحلة الغضب ثمّ القبول بالأمر الواقع بعد المرور بمراحل اكتئاب عِدّة -نتيجة تعرّضه لصدمةٍ أو كارثةٍ كبيرة- لم يَنطبق عليّ بصورة تامّة، أفترض

أننـي مررتُ بحالة إنكـار لبعض الوقت، بعدها بدأت بإحراق الشـمعة من جانبيها واكتشـفت أنها تُعطي ضوءًا شـاعريًّا بِهذه الطريقة، لا أسـتطيع تخيّل نفسي وأنا أضرب جبيني بسـبب الصدمة أو أنوح بالبُكاء وأصف هذا العالم بأنـه غيرُ عادل، أنا الذي كُنت أسـخر مـن حاصـد الأرواح مُتحديًّا إياه بأن يأخـذ روحي. الآن أنا خاضـع لأمر مؤكد حدوثه ومُبتـذل لدرجة مُملّة، لن يكون الغضب منطقيًا في هذهِ المرحلة؛ بدلًا من ذلك أشـعر بالضياع بشـدّة، كانـت لـديّ خُططٌ حقيقيـة للعَقد القـادم من عُمـري وكُنت مُجتهـدًا بما فيه الكفايـة كي أسـتحقها، أحقًا لن أعيش لرؤية أبنائي وهـم متزوجون؟ ألن يكـون بمقدوري أن أرى بـرج التجارة العالمي وهو يرتفـع مرّة أخرى؟ ألن تسنح لي الفُرصة لأقرأ -أو حتى لأكتب- نعي وفاة الأوغاد الطاعنين بالسن مثـل (هنري كيسـنجر) و(جوزيف راتزينغر)؟ أسـتطيع فِهـم هذا النوع من التفكـير، العاطفةُ المُفرطة والشـفقة عـلى الذات. بالطبع سـجّل كتابي مركزًا مُتقدمًـا في قائمة الكُتب الأكثر مبيعًا في اليوم نفسـه الذي تلقيت فيهِ الأخبار السيئة، وكانت رحلتي الأخيرة التي قُمت بها وأنا أتمتّع بصحّة جيّدة (لجمهورٍ راقٍ ومُتزاحم في معرض شيكاغو للكتاب)، جعلتني هذه الرحلة أكسب ما يجعلنـي أسـافر بالطائرة لأيّ مكان أُريـد من دون أن أُفكـر في التكاليف. لا أرى أيّ نـوع من سُـخرية القدر هُنا، لن يكـون السرطان أخفّ وطأةً عليّ في حـال كُنـت أُصبت به في وقتٍ مُختلـف، لا أرى أيّ معنىً من السـؤال الغبي «لماذا أنا؟» لا يكاد الكونُ أن يهتم بالرد من الأساس: «ولِمَ لا؟».

المرحلـة اللاحقـة مـن نمـوذج (كيوبلـر روس) هي مرحلـة التفاوض والمسـاومة مـع المـوت، وإن كانت تحتوي ربـما على ثغرة؛ بسـبب أن الصفقة المعروضـة هـي أنـه بإمكـان الشـخص أن يحظى عـلى الأقل ببضع سـنوات إضافية، لكن في المُقابل عليه الموافقة للخضوع للعلاج الكيميائي. ثم إذا كُنت

محظوظًا بما فيه الكفاية، ستنتقل بها لمرحلة يكون فيها الورم قابلًا للجراحة والاستئصال أو العلاج بالإشعاع، إذًا فالصفقة واضحة، ستبقى على قيد الحياة لفترة أطول قليلًا، بالمقابل سنحتاج أن نحرمك من بعض الأشياء، قد تتضمن براعم التذوّق لديك، قُدرتك على التركيز، قابلية معدتك على الهضم وشعر رأسك. حتى الآن تبدو الصفقة معقولة، لكن لسوء الحظ فإن الصفقة تحمل في طيّاتها إحدى أكثر الكليشيهات حملًا للعطف في لُغتنا. وهي أنّ المرضى بالسرطان لا يُعانون مِنه وإنما يُحاربونه. دائمًا تسمع عبارات مثل «يُمكنك التغلّب على هذا!». حتى في نعي الخاسرين بمعركتهم أمام السرطان، يتمّ رثاؤهم بأنهم قد ماتوا بعد صراع طويل وشُجاع مع الفناء، لا تسمع مثل هذه العبارات عن الذين يُعانون من أمراض القلب أو الفشل الكلويّ.

شخصًيا، أُحب أن أعيش صورًا من صور النِضال، كُنت أتمنى في بعض الأحيان أن أخاطر بحياتي من أجل مصلحة الآخرين، بدلًا من أن أكون مريضًا مُهددًا بشدّة. اسمحوا لي أن أُخبركم أنه على الرغم من كلّ هذا، عندما تجلس في غُرفة مع مجموعة من الناس الذين تصدّروا ترتيب سباق الموت أيضًا، ويأتي أحدهم بكيسٍ ضخم شفاف مليء بالسموم ويقوم بإيصاله بذراعك، وانت تقرأ كتابًا أو لا تفعل شيئًا على الإطلاق، عندما يتقاطر السمّ تدريجيًا في دمك، فإن صورة الجُندي المُتحمس أو الثوريّ هي آخر ما ستفكّر به، ستشعر بأن السلبية والعجز تغمرك، ثم تذوب عاجزًا عن فعل أيّ شيء، كأنك مُكعب سُكر في كوب ماء.

***

إنه شيء مُثير للاهتمام، هذا السُم الكيميائي قد تسبّب لي بخسارة حوالي أربع عشر رطلًا، على الرُغم من ذلك لم أشعر بأن جسمي أصبح أقل

وزنًا، لقد أخفى لي طفحًا جلديًا متوحشًا كان قد نما على ساقي لم يستطع أي طبيب أن يجد له حلًا على الإطلاق. (بعضٌ من السُم لكي أتخلّص من تلك النقاط الحمراء الغاضبة من دون معاناة) فليكن هذا، إنها مُهاجمة للأجنبيّ الدخيل ومُستعمراته. لقد كُنت راضيًا إلى حدٍ ما عن فقدان شعري، الذي بدأ يتساقط في الحمام في أثناء الأسبوعين الأولين من العلاج، قُمت بحفظه في كيس بلاستيكي بحيث كان على هيأة بإمكانك فيها سد ثغرة في السد العائم الموجود في خليج المكسيك. لكنني لم أكن مُستعدًا تمامًا للطريقة التي انزلقت بها شفرة الحلاقة الخاصة بي على وجهي من دون أن تواجه أيّ قشّة في طريقها. أو بالطريقة التي بدأت تكون عليها شفّتي العليا التي جعلتني أبدو كأني عمّة بِكر لأحدهم. شعرُ الصدر الذي كان فيما مضى بمساحة قارّتين لم يتساقط لكن تمّت حلاقته من أجل الشقوق الطبية الكثيرة. لم أكن لألحظ لو كانت (بينيلوب كروز[11]) إحدى مُمرضاتي. أنا في خضم حرب ضد ثاناتوس[12]. إذا كانت تصُح تسمية الحرب على ما أمر به، فإن خسارة المعركة الأولى بوجه إيروس[13] هي تضحية مبدئية ضخمة.

كانت هذه أوّل ردود أفعالي المجرّدة لكوني أمرّ بنكبة، أنا مُصممّ على المقاومة الجسدية قدر استطاعتي، وأبحث عن المشورة والمُساعدة قدر الإمكان، قلبي وضغط دمي وكثير من المؤشرات الحيوية الأخرى أصبحت مُستقرّة الآن. في الواقع لو لم أكن ذو رباطة جأشٍ قوية كهذه لَما تمكّنت من مقاومة الدخيل المواجه لي، الذي هو أعمىً عاطفيًا وغريب عنّي ويتمتّع

(١١) بينيلوب كروز: مُمثّلة إسبانية، كان أحد أشهر أدوارها هو دورها في فيلم قراصنة الكاريبي - المُترجم
(١٢) ثاناتوس: إله يُمثّل الموت في الميثولوجيا اليونانية القديمة - المُترجم
(١٣) إيروس: إله الحُب والشغف والرغبة الجنسية في الميثولوجيا اليونانية القديمة - المُترجم

بتشـجيع أولئـك الذين تمنّوا لي المـرض؛ لكن حياتي لازالت مُسـتمرة. هُناك مجموعـة مـن الأطباء اللامعـين والمليئين بالإيثـار، إضافة لمجموعـات دينية تقوم بالصلاة، آمل أن أكتب في المرة القادمة عن الجانبين، إذا -كما كان يقول والدي- نجوت.

II

عندمـا وصفت الورم الذي يسـتوطن جسـدي بأنه "أعمـى، خالٍ من العواطـف"، حتـى أنا لم أسـتطع مقاومة إعطاءه صفات تنطبق على الأشـياء الحيّة فقط؛ بحيث إنه من الخطأ أن نسـند صفات حيوية إلى ظواهر غير حية. يحتـاج السرطـان إلى كائن حي ليعيش داخله، لكنه لا يمكـن أن يُصبح كائنًا حيًّـا بذاته. يكمُـن خُبثه -صفة تُطلق على الأحياء مـن جديد- بأن «أفضل» مـا يُمكنـه فعله هـو أن يموت مع مُضيفـه الذي يعتاش عليه. إمّـا هذا أو أن مُضيفه سـيجد التدابير التي تُخمده وبهذه الحالة سـيعيش المُضيف فترة أطول من السرطان.

لكن، كما كُنت أعرف قبل أن أُصاب بالمرض، هناك بعض الأشـخاص الذين يجدون هذا التفسـير غير مُرضٍ بالنسبة إليهم، هُم يعتقدون أن الخلايا السرطانيـة تمتلـك وعيًا، كأن السرطان عميلٌ انتحـاريٌّ مُهمته أن يقتل ببطء وبتوجيه مُباشر من السـماء، لقد فاتك كثيرًا إن لم تطلّع على بعض المُسـاهمات الموجـودة في المواقـع التـي يكتب فيها المؤمنـون، كتابات من قبيـل: من مثلي يشـعر بأن إصابة كريستوفر هيتشنز بسرطان في الحنجرة ما هو إلّا عقاب من الرب له لاسـتعماله صوته بالتجاوز والتجديف ضد الدين؟ يميل الملحدون لتجاهل الحقائق! إنهم يحبون أن يعدوا كلّ شيء ماهو إلّا محض مُصادفة! من

بين كلّ أجزاء جسمه أصاب السرطان الجزء الذي كان يستخدمه هيتشنز لازدراء الأديان، يا لها من مصادفة أيها الملحدون! سيُعاني هيتشنز من أمرّ الآلام وسيذبُل شيئًا فشيئًا ثمّ يموت موتًا مُريعًا، عندها فقط سيأتي المرح الحقيقي عندما يتم إرساله إلى الجحيم المُستعرّ لتشبّ فيه النار ويتعذّب إلى الأبد.

توجد كثير من المقاطع في الكتاب المُقدّس والتقاليد الدينية التي جعلت هذا النوع من الشماتة موجودٌ منذ قرون من الزمن وأصبحت أمرًا اعتاد عليه الناس. لديّ اعتراضات كثيرة هنا. أولًا: لماذا يظنّ بعضهم أنهم يعرفون بالتحديد ما يجري في خُلد الرب؟. ثانيًا: هل يُريد كاتب هذا الكتاب المقدّس أن اقرأ هذه المقاطع أمام أطفالي؟ الذين يمرون بوقت صعب أيضًا؟ بسبب الرب نفسه!. ثالثًا: لماذا ترسانة الانتقام الوحيدة لدى الرب تنحصر في السرطان الذي يُصيب من في عمري وكان لديهم نمط حياة مشابه للذي كنت أعيشه؟ رابعًا: لماذا السرطان يُعدّ انتقامًا؟ يُصاب كل الرجال تقريبًا بسرطان البروستاتا إذا عاشوا لعمر مُعين. سرطان يوزّع على حدٍ سواء بين القديسين والمُذنبين، بين المؤمنين وغير المؤمنين.

إذا كنت تؤكد لي أن الله يمنح السرطان لِمن يستحقه، فيجب عليك النظر في أمر عدد الأطفال الذين يُصابون بسرطان الدم، كثيرون ماتوا بألم مُجحف وبعمرٍ صغير، على النقيض من هذا، بقي بيرتراند راسل وفولتير وعاشا حتى النهاية. ليسوا هم فقط، بل حتى كثير من المُجرمين والطُغاة. زيارات السرطان هذه إذًا، تبدو عشوائية بفظاعة. إن حنجرتي السليمة حتى الآن، والتي أؤكد للمسيحيين الذين تجاوزوا عليّ بأنها ليست العضو الوحيد الذي استخدمته ضد الدين، وحتى إن فقدت صوتي سأواصل كتابة المُجادلات ضدّ الأوهام الدينية، على الأقلّ حتى يجتاحني الظلام... صديقي القديم.

في هذه اللحظة يراودني سؤال «لِمَ لَمْ يكن سرطانًا في الدماغ؟» وعندها سيتخلخل الإدراك عندي وقد أصرخ طالبًا أحد الكهنة في نهايتي. أقول لكم لأخبركم أنّ من سيفعل ذلك النوع من الإهانة لنفسه لن يكون «أنا» الحقيقي. (ليبقَ هذا الأمر في أذهانكم، في حال صدرت بعض الشائعات والافتراءات بعد رحيلي).

***

الحقيقة المُتخفية التي تكمن داخلك؛ كونك مريضًا بمرضٍ قاتل، هي أنك ستقضي وقتًا طويلًا في إعداد نفسك للموت مع مقدار ضئيل من الرواقية في أثناء تواجد من تُحبهم حولك. في الوقت نفسه ستكون مُهتمًا جدًا بأن تنجو وتنفذ بنفسك من هذا المأزق، إن هذه لطريقة جدّ غريبة «للعيش»، محامون يزورونك في الصباح، أطباء في فترة ما بعد الظُهر، هذا يعني أن على المرء أن يُقسّم ذهنه فيما بينهم، بل وعليه أن يعتاد العيش بازدواجية. ينطبق هذا الأمر أيضًا على الذين يُصلّون ويدعون لي بالشفاء، مُعظم هؤلاء هم أناسٌ متديّنون بطبيعة الحال، من المُجتمع نفسه الذي يُريد لي أن اتعرّض للتعذيب هُنا والآن -وحتى إن شُفيت- فإنني سأتعذّب إلى الأبد بعد وفاتي.

من العدد الهائل من الناس الذين كتبوا لي عندما أصابني المرض، عدد قليل فقط لم يقولوا لي أحد الأمرين، إما أنهم أكدوا لي أنهم لن يجرأوا على أن يُسيئوا إليّ بالصلاة، وآخرون قرروا بحنان أن يصلّوا لأجلي على أيّ حال. كرّست المواقع الدينية مساحة خاصّة للدعاء لي؛ حتى إن يوم ٢٠ من شهر ديسمبر لسنة ٢٠١٠ قد تم تخصيصه للصلاة من أجلي. قام الحاخام (ديفيد ولب)، مؤلف كتاب «لماذا الإيمان مُهم» وزعيم طائفة كبرى في لوس أنجلِس، بالشيء نفسه. لقد كان طرفًا في مُناظراتي، كذلك فعل كثير من المحافظين الإنجيليين البروتستانت مثل القس (دوجلاس ويلسون)

من كلية نيو سـانت أندروز و(لاري تونتون) من مؤسسة (Fixed Point) في برمنغهـام، ألاباما، كتبوا لي ليقولوا: إنّ تجمعاتهـم كانت تُصلي من أجلي، وكان أول رد منّي، تساؤل خطر في ذهني: تُصلّون من أجل ماذا؟

كـما هـو الحال مع كثير مـن الكاثوليك الذيـن يصلّون لي مـن أجل أن أرى النور، كانوا صادقين للغاية ، كان الخلاص هو النقطة الرئيسـة. «نحن، بالتأكيـد، مهتمّـون بصحتـك أيضًـا، ولكـن هـذا أمر ثانـوي جـدًا.» «فماذا ينتفـع الإنسـان إذا ربح العالم كلّه وخسر روحه؟ [متـى ٢٦:١٦]» ردّ القس ويلسون: إنه عندما سمع الأخبار صلى من أجل ثلاثة أشياء: أنني سأتغلّب على المرض، وأنني سأعود إلى السراط المُستقيم، وأن يُعيد هذا الأمر التواصل بيننـا، لـذا هُنـاك بعـض الكاثوليك واليهـود والبروتسـتانت ذوي السُـمعة الحسـنة الذين يعتقدون أنني قد أكون بمعنى الكلمة «أستحقّ الإنقاذ». كان الفصيـل المُسـلم أكثر هدوءًا، صـلّى لي صديق إيرانيّ في قـبر عُمر الخيام. كان هُناك فيديو على منصّة يوتيوب يُشـجّع بأن يكون اليوم هو يوم الشـفاعة لي، مصحوبًا بأغنية «أعتقد أنني أرى النور»، التي تؤديها (كات سـتيفنز) نفسـها التي دعمت «يوسـف إسـلام» ذات مرة في الدعوة الدينية الهستيرية الإيرانية لقتل صديقي سـلمان رشـدي. (بالمناسـبة، يبدو أن الكلمات المبتذلة لأغنيته المزيفـة موجهة إلى فتاة شـابّة.) وهذه الدعوة لتوحيـد الخطاب لها تناقضات أُخرى أيضًا.

إذا كنـت قـد أعلنت أنـني تحولت فجـأة إلى الكاثوليكية، فأنـا أعلم أن (لاري تونتـون) و(دوجـلاس ويلسـون) سيشـعران أنـني وقعـت في خطأ فـادح، مـن ناحية أخـرى، إذا انضممـت إلى أيّ من المجموعـات الإنجيلية البروتسـتانتية، فـإن أتباع رومـا لن يعتقـدوا أن روحي أصبحت أكثـر أمانًا ممـا هي عليه الآن، في حـين أن القرار المتأخّر في الحياة بالالتـزام باليهودية أو

الإسـلام سـيكون حتمًا أفقدني كثيرًا من الصلوات مـن الفصيلين. أتعاطف مجـددًا مع فولتير العظيم، الـذي تمّت مُضايقته على فراش موته وحثّه على نبذ الشيطان.

***

قام الفيزيائي الدنماركي والحاصل على جائزة نوبل (نيلز بور) ذات مرّة بتعليـق حدوة حصان عنـد مدخل منزله، أكـد أصدقاؤه بأنه من المُسـتحيل أن يضـع أيّ ثقـة بمثل هذه الخُرافات المُثيرة للشـفقة. أجـاب هو بثقة وبكلّ رباطـة جـأش: «لا، أنا لا أؤمـن بها، لكن يبـدو أنها تعمل سـواء صدّقنا بها أم لا» قـد يكون هذا الاسـتنتاج هو الأكثـر أمانًا. هُناك تحقيق أكثر شـمولية قـد تمّ عام ٢٠٠٦ -دراسـة الآثـار العلاجية للصـلاة- لم تُظهـر نتائجه أيّ ارتباط على الإطلاق بين زيادة عدد الناس الذين يُصلّون لشـخص ما، وبين زيادة فُرصه في التحسّـن والنجاة. لكنّ الدراسـة أظهرت رابطًا سلبيًا صغيرًا ومُثيرًا للاهتمام، تبيّن أنّ بعض المرضى يُعانون من ضغطٍ رهيب في حال عدم تحسّـنهم، سيشـعرون بأنّهم قد خيّبوا ظنّ من يُحبوهم، بالطبع فإن معنوياتهم هـي عامل إضـافيّ يؤثّر على صحّتهم. أفهم هذا الآن أكثـر ممّا كُنت أفهمه في السـابق عندما قرأتـه لأوّل مرّة. أخـبرني عددٌ كبير من الأصدقـاء العلمانيين والمُلحديـن عبـارات مثل «إذا كان أحدّهم يسـتطيع التغلّـب على السرطان، فأنت بالتأكيد ستتمكّن من التغلّب عليه.»؛ «بالتأكيد، إنّ السرطان لا يملك فرصة أمام شـخصٍ مثلك.»؛ «جميعنا نعلم بأنّك تسـتطيع التغلّب عليه.» في الأيّام السـيّئة وحتـى في الأيّام الجيدة، يُمكن أن تُضيـف هذه النصائح تأثيرًا غامضًـا مـن الإحباط. إذا مُت، فسـأُخيّب ظـنّ كلّ هؤلاء الرفاق، المشـكلة الأُخرى أيضًا: ماذا لو نجـوت، فقام الفصيل المُتديّن بالادّعاء بأن صلواتهم قد تمّت الاستجابة إليها؟ قد يكون ذلك الأمر مُزعجًا إلى حدٍّ ما.

الدكتور (فرانسيس كولينز)، أحد أعظم الأمريكيين الأحياء، إنه الرجل الذي أوصل مشروع الجينوم البشريّ إلى الكمال قبل الموعد المُحدد وفي حدود الميزانيّة المُخصّصة، يُدير الآن أحد المعاهد الوطنية للصحّة. في عمله على الأصول الجينية للمرض، ساعد في فكّ شفرة «الأخطاء المطبعية» في الحمض النووي التي قد تُسبب كوارث مثل التليّف الكيسي ومرض هنتنغتون[١٤]. يعمل حاليًا على خصائص العلاج المُدهشة الكامنة في الخلايا الجذعية وفي العلاجات التي تعتمد على الجينات «المُستهدفة». هذا الإنسانيّ العظيم هو أيضًا مُغرم بأعمال (سي إس لويس) وكتابه «لغة الله» الذي جعل العلم مُتوافقًا مع الإيمان. (يحتوي هذا الكتاب على فصل مُقتضب بشكل غريب، يُخبر فيه الأصوليين أنّ الجدل حول التطوّر قد انتهى).

أعرف فرانسيس أيضًا من مُختلف المناقشات العامة والخاصة حول الدين، لقد كان لطيفًا بما يكفي لزيارتي في وقته ومناقشة كل أنواع العلاجات الجديدة، التي يُمكن تخيلها مؤخرًا فقط، والتي قد تنطبق على حالتي. واسمحوا لي أن أطرح الأمر على هذا النحو: لم يقترح الصلاة، ولم أزعجه أنا بالحديث عن روايته «رسائل سكروتيب». لذا فإن أولئك الذين يريدون مني أن أموت في عذاب يُصلّون بالفعل من أجل إحباط جهود الطبيب المسيحي غير الأنانيّ. من هو الدكتور كولينز ليتدخّل في التصميم الإلهي؟ وبطريقة مُماثلة، فإن أولئك الذين يريدون مني أن أُحرق في الجحيم يسخرون أيضًا من هؤلاء المتدينين الرقيقين الذين لا يجدونني

---

(١٤) داء هنتنغتون: مرض وراثيّ يُسبب تلفًا في خلايا عصبية مُعيّنة في الدماغ، نتيجة لذلك تظهر لدى المريض حركات لا إرادية واضطرابات عاطفية وتدهور في الحالة العقلية، لم يتمّ اكتشاف أيّ علاج له حتى اليوم. - المُترجم

شريرًا. أتـرك هذه المفارقات لأولئك الأصدقاء والأعداء الذين لا يزالون يبجّلون خوارق الطبيعة.

بعـد متابعة مُنتديات الصلاة على شـبكة الانترنت، عثـرت في النهاية عـلى مقطع فيديو غريب لوضع الرهانـات. يدعو المُقامرين إلى وضع المال عـلى ما إذا كُنت سـوف أرفض إلحادي وأعتنـق الدين بحلول تاريخ معيّن أو أسـتمر في تأكيد عدم الإيمان وأتخذ العواقب الجهنمية، قد لا يكون هذا رخيصًا أو سيئًا كما يبدو.

(بليز باسكال) أحد أكثر المدافعين عن المسيحية، قلّل من الضروريات إلى رهـان يعود إلى القرن السـابع عـشر. اقترح أن تضع ثقتـك في المعبود، وسـوف تكسـب كلّ شيء. أمّا اذا رفضت العرض السـماويّ هذا فستفقد كل شيء إذا سقطت العملة في الاتجاه الآخر. (يسمي بعض الفلاسفة هذا الرهان بمناورة باسكال.)

على الرغم من أن المنطق الكامل لمقاله قد يكون بارعًا -فقد كان أحد مؤسـسي نظرية الاحتمالات- يفترض باسكال إلهًا ساخرًا وإنسانًا انتهازيًا بشـكل فاضح. لنفـترض أنني تخلّيت عن المبادئ التـي كُنت أملكها مدى الحياة، على أمل الحصول على المكسـب في اللحظـة الأخيرة. آمل وأثق أنه لـن يكون أي شـخص جاد معجبًا عـلى الإطلاق بهذا الخيـار البغيض. في هذه الأثناء، فإن الإله الذي يُكافئ الجُبن والخيانة ويُعاقب الشك الذي لا يمكـن التوفيق بينه هـو من بين كثير من الآلهة التـي لا أؤمن بها. لا أقصد أن أكون غشاشًـا حول أي نوايا كريمة، ولكن عندما يأتي ٢٠ سبتمبر، من فضلك لا تُقلق الجنة الصماء مع صرخاتك الباطلة. ما لم- بالطبع- يجعلك ذلك تشعر بتحسن.

***

يملك كثير من القرّاء معرفة بروح ونص تعريف «الصلاة» كما قدّمها (أمبروز بيرس) في كتابه «قاموس الشيطان»، وهو تعريف من اليسير للغاية فهمه، الصلاة: التماس بإيقاف قوانين الطبيعة لصالح صاحب الالتماس. الذي هو نفسُه لا يجد نفسهُ جديرًا بذلك.

يُمكن لأيّ شخص أن يرى النُكتة المُضمّنة في هذا التعريف: الرجل الذيّ يُصليّ يعتقد أن الله قد رتّب الأمور بطريقة خاطئة، لكنّه يعتقد أيضًا باستطاعته توجيه الله لتصحيح الموقف، الأمر نصف المُخبأ هُنا يكمن بتناقض فكرة أنّ لا أحد يمتلك المسؤولية العُليا، أو أن لا أحد يمتلك قيمًا أخلاقية. الدعوة إلى الصلاة هي إلغاء للذات. إما إن قناعاتنا كافية في حد ذاتها أو أنها ليست كذلك: على أي حال، فإنهم يطلبون الوقوف في حشد من الناس وإبداء التعويذات الثابتة والموحدة. يأمر أحد الأديان بأن يتم ذلك خمس مرات في اليوم، ومن قبل أتباع التوحيد الآخرين لهذا العدد تقريبًا، في حين أنهم كلهم يخصصون يومًا واحدًا على الأقل من أجل مدح الرب، ويبدو أن اليهودية تتكوّن في أصلها من قائمة ضخمة من المحظورات التي يجب اتباعها قبل أي شيء آخر.

إن نغمة الصلوات تُكرر سخافة التفويض، حيث إنّ الله أمر أن يتمّ شُكره لفعل ما كان سيفعله على أيّ حال. وهكذا يبدأ الذكر اليهودي كل يوم بشكر الله على عدم جعله امرأة (أو مُشركًا)، بينما تكتفي المرأة اليهودية بشكر القدير على خلقها «كما هي». يُفترض أن القدير سعيدٌ بتلقي هذا التكريم بقوّته وموافقة أولئك الذين خلقهم؛ إذا كان حقًا تعالى، سيبدو هذا الأمر له من دون قيمة إلى حدٍ ما.

ينطبق الشيء نفسه على فكرة أن الصلاة، بدلاً من أن تجعل المسيحية تبدو أمرًا أحمقًا، تجعلها تبدو مقنعة. (سنأخذ المسيحية مثالًا اليوم.) الآن،

يمكن التأكيد ببعض الثقة، أولاً: أن إله المسيحية حكيم وقوي تمامًا، وثانيًا: أن رعاياها في حاجة ماسة إلى حكمة هذا الإله اللامحدودة.

فقط لإعطاء بعض الاقتباسات الأولية، جاء في (الرسالة إلى أهل فيلبي[15]) [٦:٤]: «لا تهتّم بأيّ شيء؛ إلا بالأمور التي تتعلّق بالصلاة والدعاء والشكر، لتكُن طلباتك تكون معروفة لله.» وجاء في (سفر التثنية) [٣٢:٤]: «هو الصخر، عمله مُتكامل»، ويُخبرنا (سفر إشعياء) [٦٤:٨]: «الآن يا رب، أنت أبانا. فنحن طين وانت الخزّاف. ما نحن كُلّنا إلّا ما صنعت يداك». لاحظ إذن أن المسيحية تُصرّ على الاعتماد المطلق لقطيعها، وعلى تقديم الثناء والشكر غير المخفف. إن الشخص الذي يستعمل وقت الصلاة ليطلب من العالم أن يكون له حقوق، أو أن يطلب من الله أن يمنحه النِعَم، سيكون في الواقع مُذنبا بتجديف عميق أو على الأقلّ سوء فهمٍ مُثيرٍ للشفقة. ليس فقط من أجل افتراض أن الإنسان يستطيع تقديم المشورة الإلهية. وهذا، للأسف، يفتح الدين على تهمة الفساد الإضافية. يعرف قادة الكنيسة جيدًا أن الصلاة لا تهدف إلى إرضاء المتدينين؛ لذلك في كلّ مرة يأخذون التبرعات مقابل بعض الالتماس، فإنهم يقبلون نفيًا صارمًا لإيمانهم: إيمان يعتمد على القبول السلبي للمتدين وليس على مطالبهم هُم. في نهاية المطاف، وبعد شجار مرير وانشقاقيّ، تم التخلي عن ممارسات مثل «طقوس الغُفران[16]» سيئة السمعة؛ لكن كثيرًا من الكاتدرائيات الجميلة ما كانتْ

---

(١٥) رسالة إلى أهل فيلبي: إحدى رسائل العهد الجديد التي تُنسب إلى بولس، وبحسب التقليد فإن بولس قام بكتابتها في أثناء وجوده في السجن في روما ما بين ٦١م إلى ٦٢م. - المُترجم

(١٦) طقوس الغُفران: هي الإعفاء الكامل أو الجزئي من العقاب الدنيوي على الخطايا التي تم الصفح عنها. يتم منح الغفران من الكنيسة بعد أن يعترف الشخص الآثم بخطاياه ويتوب عنها. وكان الغُفران عادة ما يُمنح مقابل تبرّعات أو صلوات.

ليرتفع بُنيانها ما لم تُحقق تِلك الانتهاكات الفظيعة ربحًا جيدًا بشكلٍ مُذهل.

أصبح من السهل بما يكفي أن نرى اليوم، في اجتماعات إحياء الأصوليين البروتستانت، أنه يتمّ إحصاء الشيكات والفواتير قبل أن تنتهي الجلسة مع الواعظ. مرّة أخرى، إنّه لمشهدٌ وقح، حيث استبدل الكالفينيون بطريقة ما روما بوصفها أكبر جامعي الأموال باسم القداسة. وقبل أن ينفد التناقض، يبدو من السخف أن يهتم كالفيني بالشفاء الإلهي. أعلن الدستور التأسيسي للكنيسة المشيخية الشهيرة من فيلادلفيا أنه «بموجب مرسوم الله، من أجل إظهار مجده، فإن بعض الرجال والملائكة مُقدّرون طوال حياتهم وبعضهم الآخر مقدس للموت الأبدي، من دون أي تبصر بإيمانهم أو أعمالهم الصالحة، أو السعي في أيّ منهما، أو أي شيء آخر في المخلوق بوصفه شرطًا لقبوله».

بصراحة، هذا يعني أنّه لا يُهم ما إذا كنت تحاول أن تعيش حياة مقدسة، أو حتى تنجح في القيام بذلك. ستبقى نزوة عشوائية هي ما تُحدد ما إذا كنت ستحصل على أجر سماويّ أم لا، وفي هذه الحالة يكون الدين الذي يعامل قطيعه على أنه لعبة، يُقدم واحدة من أقسى المشاهد التي يمكن تخيلها: إنسان في خوف وشك يُستغل علانية للإيمان بالمستحيل. من فضلك لا تندهش إذا كنا نحن الملحدين نلبس نظرة الشفقة؛ حيث إن الأزمات الأخلاقية تُهدد الكل في أيّ لحظة.

III

«يجب عليها أن تعتني بنفسها، وأن تختار وضع نفسها في التجميد العميق، في غضون عامٍ أو اثنين سيطوّر العُلماء عقارًا يُعالج هذا المرض ببساطة مثلما يُعالجون الزُكام اليوم.

مثلـما تعلـم، هُنالـك أنـواع كثيرة مـن الكورتيـزون موجـودة بالفعل، لكـن الطبيب أخبرنا بأنهم لا يعرفون بعد الآثـار الجانبية التي قد تترتب على استخدام هذا العلاج والتي قد تكون أسـوأ بكثير. مثلـما تعرف، قد يُصيبها ذلـك المرض. عـلى أيّ حال، يجب اغتنـام هذه الفرصة؛ إذ إنهـم قريبون من القضـاء على السرطـان بالفعل ومع عمليات زراعة الأعضاء هذه، سـيكون بالإمكان قريبًا استبدال أجزاء الجسم الداخلية بكاملها».

رحلة رابِت، رواية للسيّد جون أبدايك [١٩٧١].

تمّت كتابة رواية السـيد أبدايك في ما يمكن تسـميته بالسـنوات المُتفائلة تحت إدارة الرئيس ريتشـارد نيكسـون، الفترة التي شـهدت انطلاق التعابير التي تبدأ بـ«يستطيع الأمريكيون أن يفعلوا....»

«إذا كان بإمكاننا وضع رجلٌ على القمر، فنحن نستطيع أيضًا أن....»

في ينايـر (كانـون الثاني) من عـام ١٩٧١ قام السـيناتور جـون كينيدي وجيكـوب جاڤِتس برعايـة قانون «اسـتئصال السرطان» وبحلول ديسـمبر (كانون الأول) من العام نفسـه، وقّع الرئيس ريتشارد نيكسون قانونًا مُشابها بالتزامـن مـع تخصيصـات فيدراليـة ضخمـة. كلّ الحديث كان يـدور حول «الحرب على السرطان».

بعـد أربعـة عقود مـن الزمن، اجتمعت تلـك "الحـروب" المجيدة مرّة أُخـرى، ووُجهت نحو الفقـر والمخدرات والإرهاب، كما يجـري الحال دائمًا ما يتمّ تشجيعي على «مُحاربة» الورم الذي بداخلي، لا يمكنني تجاهل الشعور بأن السرطان هو من يقوم بالحرب ضدّي أنا. تلك الرهبة التي يحملها عندما يتمّ وصفه بـ«ذلك المرض»؛ هي شيء خرافيّ تقريبًا، كذلك الأمر نفسـه عند

تبادل الهمس حول الأمل الدائم بإمكانية إيجاد علاج أو مهرب منه.

في مقالها الشهير عن هوليوود، وصفت بولين كال هوليوود بأنها مكانٌ قد يموت فيه الشخص من شدّة التشجيع. قد ينطبق هذا الأمر على بلدة السرطان أيضًا، ففيها تشعر بأنك ستموت من كثرة النصائح، ستواجه كثيرًا من النصائح المجانية وغير المرغوب بها. يجب أن أبدأ ومن دون تأخر بِذكر نصائح تناول عصير حبيبات ثمرة الخوخ (أم المشمش؟)، وهو علاج كان معروفًا لدى الحضارات القديمة؛ ولكن الأطباء الجشعين الآن يقومون بإخفائه عن المرضى. يتحدّث شخص آخر بأن عليّ أخذ جرعات مضاعفة من التستوستيرون، رُبّما بوصفها نوعًا من تعزيز المعنويات. أو أن عليّ إيجاد طريقة معيّنة للوصول لبعض الشاكرات[١٧] ووضع نفسي في حالة نفسية مُتقبّلة لما يجري. أو أنّ كلّ ما احتاجه لتجاوز هذه المرحلة هو حمية نباتية. لا تضحك على السيد المسكين المدعو انجستروم لما قاله أعلاه، فقد كتب لي أحدهم من جامعة شهيرة بأنه يجب عليّ وضع نفسي في وضع التجميد العميق حتى يأتي اليوم الذي يخترعون فيه العلاج السحريّ، عندما تجاهلت الردّ على هذا الاقتراح حصلت على واحد ثانٍ يُخبرني بأن عليّ تجميد دماغي على الأقل حتى يكون في متناول تقدير الأجيال القادمة.

تلقيّت مُلاحظة لطيفة من صديقة لي من قبيلة شايان[١٨] تقول فيها: إنّ كلّ من تعرفهم من الذين لجأوا إلى العلاجات القبلية قد ماتوا على الفور تقريبًا، واقترحت عليّ أنه إذا ما عُرض عليّ أيّ أدوية من قبائل أمريكا الأصلية، فيجب عليّ أن «أهرب بأسرع ما يُمكن في الاتجاه المُعاكس». كما

(١٧) شاكرا: أحد العلوم الزائفة التي يُدّعى أنها أُخذت من القبائل الهندية القديمة، «الشاكرات»: مراكز القوّة. - المُترجم

(١٨) شايان: إحدى مجموعات السكان الأمريكيين الأصليين. - المُترجم

ترون، فإن بعض النصائح جيّدة بالفعل ويُمكن الأخذ بها.

حتى في عالم العقل والحداثة، قد لا يُمكن إيجاد أشخاصٍ لا يصرّون على وجود طبيب واحد فقط، أو عيادة واحدة فقط هي من تمتلك الدواء الشافي، هؤلاء الأطباء وعياداتهم بعيدة كل البعد عن كليفلاند وكيوتو؛ حتى لو امتلكت طائرتي الخاصة، فلن أتمكن أبداً من التأكيد لنفسي أنني جرّبتها كلها، ناهيك عن كلّ شيء. يتعرض مواطنو بلدة الأورام للهجوم من العلاجات وشائعات العلاج. في الواقع، أخذت نفسي إلى عيادة فارهة في الجزء الأكثر ثراء من البلدة المنكوبة، والتي لن أسميها؛ لأن كلّ ما حصلت عليه كان عرضًا طويلًا ومملًا لما كنت أعرفه بالفعل (في أثناء الاستلقاء على أحد طاولات الفحص الفارهة للمؤسسة الأسطورية) بالإضافة إلى لسعة حشرة، ضاعفت لفترة وجيزة حجم يدي اليسرى: أمرٌ هيّن لو لم أكُن مُصابًا بالسرطان، ولكنه حدثٌ جلل لشخصٍ يُعاني من نظام مناعي مُتهالك بسبب العلاج الكيميائيّ.

***

على الرُغم من كلّ شيء، أنْ أُصاب بالسرطان في هذا الوقت بالذات؛ لهو أمرٌ مُبهج وحزين في الوقت نفسه، ذلك بسبب أن طبيب الأورام الأكاديمي المسؤول عن حالتي، الدكتور فريدريك سميث، يُمكنه أن يُصمم كوكتيلًا كيميائيًا بإمكانه تقليص بعض الأورام الثانوية في جسدي، ويُمكنه أيضًا أن يقوم بتعديلات مُعيّنة على هذا الكوكتيل لتقليل بعض الآثار الجانبية السيئة، لم يكن هذا الأمر مُمكنًا عندما كان أبدايك يكتب روايته أو عندما كان نيكسون يُعلن «حربه» ضدّ السرطان، لكن الحُزن يتسلل أيضًا؛ لأن هُناك طفرات علاجية جديدة بدأت تلوح في الأفق، لكنّها غالبًا جاءت مُتأخرّة بالنسبة إليّ.

على سبيل المثال، كُنت مُتحمسًا وأنا أسمع عن علاج جديد يستخدم «البروتوكول المناعي» طوّره الدكتور ستيفن روزنبرغ ونيكولاس ريستيفو في المعهد الوطني للسرطان، في الواقع، إن كلمة «حماس» لا تُعطي الحق الكافي، لقد كُنت مُهتاجًا من الحماس. من الممكن الآن إزالة الخلايا التائية[١٩] من الدم وإخضاعها لعمليات الهندسة الوراثية ثم إعادة حقنها لتقوم بوظيفة المُهاجم أمام الأورام الخبيثة.

كتب الدكتور ريستيفو: «قد يبدو للوهلة الأولى أن ما نفعله أمرٌ خيالي»، وأكمل كأنه هو أيضًا قد قرأ رواية أبدايك: "لكنّنا نجحنا بعلاج أكثر مائة مريض باستخدام الخلايا التائية الخاضعة مُسبقًا للهندسة الوراثية، وقد عالجنا أكثر من عشرين مريضًا كانوا يُعانون من حالات مُشابهة لحالتك، أقترح أن نُطبّق هذا البروتوكول العلاجي عليك.»

كانت هُناك لفتة تضمّنت وجوب وجود «تطابق»، من أجل نجاح العلاج، كان يجب أن يحتوي الورم الخاص بي على بروتين يُسمى NY-ESO-1، وأن تحتوي خلاياي المناعية على جُزيئات مُعيّنة تُسمّى HLA-A، بوجود هذا التطابق، هناك إمكانية لتدعيم الجهاز المناعي لرفض وجود الورم. كانت الاحتمالات تبدو جيدة، حيث إن نصف الذين يمتلكون جينات أوروبية أو قوقازية يملكون الجزيئات الواجب وجودها. عند تحليل الورم الخاص بي تبيّن أنه يحتوي على البروتين المُراد وجوده! لكن خلاياي المناعية لم تكن قوقازية بما فيه الكفاية. هناك تجارب أُخرى مُماثلة قيد المُراجعة من قبل هيأة إدارة الغذاء والدواء الأمريكية؛ لكنّني لم أكن أملك الوقت

---

(١٩) الخلايا التائيّة أو T-Cells: مجموعة من الخلايا الليمفاوية الموجودة في الدم، تؤدي وظيفة مهمة في مناعة الجسم. - المُترجم.

الكافي، لا يُمكنني نسيان شعور الاستياء الشديد الذي عانيته عندما تلقيت هذه الأخبار.

رُبما يجب التخلّص من هذه الآمال الزائفة بسُرعة، تلقيت في الأسبوع نفسه أخبارًا تقول بأن الورم في جسدي لم يكن يملك الطفرات اللازمة؛ لأكون مؤهلًا لأي علاجات «موجّهة» أُخرى. بعدها بليلة واحدة تقريبًا، استلمت رسائل بريد الكتروني من قبل خمسين صديقًا ربما، كلّها كانت تُخبرني بأن برنامج (ستون دقيقة) قد عرض تقريرًا عن «هندسة الأنسجة»، حيث تمّت عملية تحفيز نمو أنسجة جديدة عن طريق الخلايا الجذعية لشخصٍ مُصاب بسرطان المريء. اتصلت بحماس بصديقي الدكتور كولينز، حينها أخبرني بلطف ولكن بحزم، بأن سرطاني قد انتشر بعيدًا جدًا عن المريء؛ بحيث لا يُمكن علاجُه بهذه الوسائل.

آخذًا بعين النظر الكآبة التي قد طوّرتها في أثناء الأيام السبعة الرديئة الماضي، اكتشفت أنني أشعر بالغدر وكذلك بخيبة أمل. يقول المُربيّ الأمريكي العظيم (هوراس مان): «يجب على المرء أن يخجل من الموت، حتّى يكون قد قدّم شيئًا للإنسانية.»، كان من دواعي سروري أن أعرض نفسي على التجارب السريرية للعقاقير الجديدة او للعمليّات الجِراحية، جُزئيًا بالطبع، على أمل أن يتمكنوا من إنقاذ حياتي. لم أكن مؤهلًا حتى لهذه المغامرة، لذلك يجب عليّ أن اعتاد التعامل مع الروتين الكيميائي، الذي ما يلبث أن يزداد كونه جديرًا بالاهتمام، إضافة للتدخل الجراحيّ، كلّ هذه الحلول تُشبه المُعجزات إذا ما قارنّاها مع الماضي القريب.

***

هُناك محاولة أبعد أُريد تجربتها، على الرغم من أن احتمالية نجاحها

بعيدة المنال؛ سأحاول الحصول على «تسلسل» الحمض النووي الخاص بي بالكامل، إضافة إلى تسلسل الحمض النووي للورم. كان فرانسيس كولينز واضحًا في كلامه حول فائدة هذا الموضوع، وكتب لي حول هذه الإجراءات، «يُمكن تحديد الطفرات الموجودة في السرطان التي تسببت في نموه. إن إمكانية اكتشاف الطفرات في الخلايا السرطانية التي يمكن أن تؤدي إلى فكرة علاجية هي أمرٌ غير مؤكد - فهذا الأمر لا يزال حديثًا في عالم علاج السرطان.»، ولهذا السبب كما نصحني، تأنيّت أكثر، فإن تكلفة القيام بذلك باهظة للغاية في الوقت الحالي؛ لكن لزيادة إصراري أُفكّر بأن كل شخص تقريبًا في هذا البلد إما مصاب بالسرطان أو لديه صديق أو قريب كان ضحية له، لذلك رُبما سأكون قادرًا على المساهمة قليلاً في توسيع المعرفة التي ستساعد الأجيال القادمة.

***

أقول «ربما»؛ لأن فرانسيس اضطر الآن إلى التخلي عن كثير من عمله الرائد، من أجل الدفاع عن مهنته من الحصار القانوني لأهم مساعيه الواعدة، حتى عندما كنت أنا أجري تلك المحادثات المثيرة معه، أمر قاضٍ اتحادي في واشنطن العاصمة في أغسطس الماضي بوقف كل النفقات الحكومية على أبحاث الخلايا الجذعية الجنينية. كانت القاضية رويس لامبرت ترد على دعوى من أنصار ما يسمى بتعديل (ديكي ويكر)، الذي سُمي باسم الثنائي الجمهوري الذي نجح في عام ١٩٩٥ في منع الإنفاق الفيدرالي على أي بحث يستخدم جنينًا بشريًا. بوصفه مسيحيًا مؤمنًا، كان فرانسيس شديد الحساسيّة بشأن العمل مع هذه الخلايا غير الواعية لأغراض بحثية؛ لكنه كان يأمل في الحصول على عمل جيد من استخدام الأجنّة الموجودة بالفعل، التي تم إنشاؤها في الأصل من أجل عمليات الإخصاب في المُختبر. هذه الأجنة

لـن تذهب إلى أيّ مكـان، موضوعة كما هي، لكن المجانين المتدينين يسـعون جاهديـن لمنـع حتى استـخدامها، الأمـر الذي من شـأنه أن يُسـاعد ما يعده المجانين إخوة للبشر أنفسـهم الذين لم يتشـكلوا بعد! يجـب أن يخجل الرعاة المسيّسون لهذا الزيف العلمي. إذا كنت ترغب في المشاركة في "الحرب" ضد السرطان والأمراض الرهيبة الأخرى أيضًا؛ فعليك الانضمام إلى المعركة ضدّ غبائهم القاتل.

IV

منذ مُشاركتي في جولة كتاب في صيف عام ٢٠١٠، لم أكن أفوّت فرصة للبقـاء على تواصـل مع الناس وللمشـاركة في مُختلف الفعاليـات، لم أتوقّف عـن المُشـاركة في المناظرات وإلقـاء المُحـاضرات كلّما كنت أسـتطيع، كانت تلـك الفعاليـات جزءًا لا يتجزّأ مـن حياتي، كُنـت أدوّن الملاحظات وأكتب مسـوّدات كلّما سـنحت لي الفرصة، أنا أيضًا أستمتع أشـدّ استمتاع بكلامي معـك، عزيزي القارئ، سـواء أكُنت قد اشـتريت نُسـخة لامعـة جديدة من مُذكراتي أم لا، لكن هذا ما حدث قبل عدّة أسـابيع، تخيّل إن أردت المشـهد الآتي...

أجلس أنا على طاولتي، تقترب منّي امرأة تبدو عليها ملامح الحنان:

هي: شعرت بأسىً شديد عندما علمت أنك مريض.

أنا: شكرًا لك على قولك هذا.

هي: كان أحد أقربائي مُصابًا بالسرطان.

أنا: آسف لسماع ذلك.

هي: [في أثناء زُحام الطابور خلفها] نعم، أُصيب به في كبده.

أنا: هذا ليس جيدًا بالمرّة.

هي: لكن السرطان اختفى، بعد أن أخبره الأطباء بأنه غير قابل للشفاء.

أنا: هذا كلّ ما نتمناه جميعنا.

هي: [مع ظهور علامات الامتعاض على الواقفين خلفها] نعم، لكنّه انتكس بعد ذلك، وعاد أسوأ بكثير من ذي قبل.

أنا: اوه، هذا أمرٌ مروّع.

هي: ثمّ مات ميتة مؤلمة.

أنا: [أُحاول البحث عن كلمات لأقوله ...]

هي: لقد كان مثليّ الجنس

أنا: [لا أستطيع إيجاد الكلمات المُناسبة، ولا أريد أن أبدو غبيًّا برديّ]...

هي: وعائلته بكاملها تخلّت عنه. مات وحيدًا.

أنا: بالكاد أستطيع أن...

هي: على أيّ حال، أردتك أن تعرف فحسب، إنني أفهم تمامًا ما تمرّ به.

كان هذا لقاءً مُرهقًا بشكل عجيب، جعلني أتساءل عمّا إذا كان هُناك مجال لكتابة كُتيّب صغير عن آداب التعامل مع المصابين بالسرطان والمُتعاطفين معهم، لم أكُن مُتكتّمًا بشدة حول مرضي، في الوقت نفسه لم أكن أتمشى ومكتوبًا على سُترتي «اسألني عن التعامل مع سرطان المريء المُنتشر في مرحلته الرابعة فقط، لا تُحدّثني عن شيء سواه.»

في الواقع، إن لم تجلب إلي أخبارًا جديدة عن العلاج وعن ماذا يحدث عندما ينتشر السرطان إلى العُقد اللمفاوية ويصيب الرئة، فأنا لا أحمل اهتمامًا

بما ستقول. يكاد المرء أن يطوّر نوعًا جديدًا من التجلّي النخبوي حول صحته وحالته الشخصية، لذلك إن كانت قصّتك الأصلية او المُستهلكة تتمحور حول بعض الأعضاء الأُخرى، حينها يجب عليك رُبما التفكير حول كيفية سردها باعتدال أو بشكل انتقائيّ أكثر. ينطبق هذا الاقتراح على ما إذا كانت القصّة مُحبطة للغاية وقاتلة للمعنويات -مثل القصّة آنفة الذِكر- أو ما إذا كان الهدف من القصّة هو التفاؤل والتفاؤل وحده: «تمّ تشخيص جدّتي بالورم القاتل في الجي سپوت وكانوا على وشك إعلان وفاتها، لكنّها تشبّثت بالحياة وأخذت جرعات ضخمة من العلاج الكيميائي والإشعاعي في الوقت نفسه، كانت آخر بطاقة بريدية استلمناها منها وهي على قمّة جبل إڤرست». مرّة أُخرى، قد يفشل سردك إذا لم تكن حريصًا على معرفة مدى جودة أو سوء أحوال (أو مشاعر) جمهورك.

***

من المُتفّق عليه في العادة أن السؤال «كيف حالك؟» لا يضعك تحت القسم في أثناء الإجابة ، لذلك عندما أُسئل هذه الأيام، أميل إلى قول شيء غامض، مثل: «من المبكّر أن أقول.» (أما إذا كان من يسألني هو أحد الموظفين الرائعين في عيادة الأورام التي أزورها، فأنا أحيانًا أختار الرد، «أشعر بأنني مُصاب بالسرطان اليوم.»)، لا أحد يُريد أن يعرف عن الكميّة التي لا تُحصى من الأحداث المُرعبة والإهانات التي تحصل عليها والتي تتحول تدريجيًا لحقائق في «الحياة» عندما يتحوّل جسدك من صديق لك إلى عدوٍ صريح: التحوّل المُمل من الإمساك المُزمن إلى نقيضه المُفاجئ جدًا، الحالة المُتناقضة السيئة عند الشعور بالجوع الشديد وأنت تخشى رائحة الطعام حتى، البؤس المُطلق من الغثيان الذي تُسببه الأمعاء الفارغة تمامًا أو الاكتشاف المُثير للشفقة بأن تساقط شعرك قد امتد حتى اختفت بُصيلات الشعر في فتحة

أنفك مؤديّة لظاهرة طفولية مُزعجة حيث يستمرّ الأنف بالسيلان من دون توقف. أعتذر، لكنّك سألت... ليس من المُمتع أن تواجه بحقيقة أنني لا أملك جسدًا، بل جُثّة.

لكن ليس من الممكن حقًا تبني موقف «لا تسأل، لا تتكلّم» أيضًا، كأنه الموقف الأساسيّ، هذه وصفة للنفاق والكيل بمكيالين. من الواضح أن الأصدقاء والأقارب ليس لديهم خيار عدم إجراء استفسارات لطيفة. إحدى الطُرق لمحاولة وضعهم على راحتهم هي أن تكون صريحًا قدر الإمكان وعدم اعتماد أي نوع من اللطف أو الإنكار، أسرع طريقة للقيام بذلك هي تبيين أن المرحلة الرابعة من السرطان هي المرحلة الأخيرة، وأنّ لا شيء بعدها. اضطررت مؤخرًا إلى قبول أنني لن أتمكن من حضور حفل زفاف ابنة أخي، في مسقط رأسي. أدى هذا إلى إحباطي لأكثر من سبب، واستفسر أحد الأصدقاء المقربين بشكل خاص، «هل تخشى ألّا ترى إنجلترا مرة أخرى؟» كان مُحقًا في سؤاله، وكان هذا بالضبط ما يُزعجني؛ لكنني صُدمت بشكل غير معقول من صراحته. أخبرت شخصًا آخر، بواقعية مُتعمدة: أنه بمجرّد أن أجري بعض عمليات الفحص والعلاجات الأخرى، قد يُقال لي من قبل الأطباء: إن الأمور من الآن فصاعدًا يمكن أن تكون في الأساس مسألة «إدارة»، زفرت بقوّة وأنا أقول «نعم، أفترض أن الوقت قادم، حيث لن يكون أمامي خيار غير رفع راية الاستسلام» قُلت بداخلي: يا لها من عبارة حقيقية، يا لمدى تلخيصها، ولكن مرة أخرى، كانت هناك الرغبة غير المعقولة في الحصول على نوع من الاحتكار، أو نوع من حق الرفض، على ما يمكن قوله بالفعل، هُناك إغراء دائم لدى ضحية السرطان أن يكون أنانيًا وحتى انفراديًا.

***

لذلك، فإن كُتيّب آداب السلوك الذي اقترحته سيفرض واجبات عليّ

وعـلى الذين يُسرفـون في الكلام وعلى البخلاء به، في محاولة لتغطية الشـعور بالإحـراج الذي لا مفر منـه بين بلدة السرطان وجيرانها. إذا كُنتَ تريد مثالًا لكيلا تكون ضيفًا غير مُرحّب به في البلدة، سأقدّم لك كلًّا من كتاب وفيديو «المُحاضرة الأخيرة»: إنه لأمر يدعو للحزن بمجرّد ذكره، كلمة وداعٌ مسجّلة من الأستاذ الراحل (راندي پاوش) كان قد انتشر على شبكة الانترنت، يجب إضافة تحذير صحيّ، فمن درجة حلاوتها قد يتطلّب الموضوع حُقنة انسولين لتحمّلها.



يُمكنكم مُشاهدة المُحاضرة الأخيرة لپاوش عن طريق رمز QR أعلاه.
- المترجم.

V

تيقّنت أنّها اللحظة التي توهج فيها مجدي،

ورأيت الخادم الأبديّ ممسكًا بمعطفي،

مُطلقًا ضحكة حقيرة،

خُلاصة الأمر، كُنت مُرتعبًا

ت.س.إليوت [أغنية حب جيه. ألفرد بروفروك]

مثل كثير من تجارب الحياة المُتنوّعة، فإن حداثة تشخيص السرطان تميل إلى التلاشي، يبدأ الأمر بالشحوب، يُصبح أمرًا تافهًا تقريبًا. يُمكن للمرء أن يعتاد تمامًا على شبح الخادم الذي ينتظره، مثل شيء يتربّص به في نهاية الرواق مساءً، على أمل أن أحصل على فُرصة للكلام، لا اعترض على حمله لمعطفي بهذه الطريقة المُميزة، كما لو أنّه يُذكرني بشكل صامت.. بأن وقتي قد حان. لا، إنه الخداع هو الذي يُزعجني.

على أُسس مُعتادة للغاية، يخدمني المرض بإضافة إثارة خاصّة لهذا اليوم، أو لهذا الشهر. قد تكون عبارة عن قُروح عشوائية على اللسان وداخل الفم، أو ازدياد الاعتلال العصبي الذي يؤدي إلى أقدامٍ باردة وخدرة، يُصبح التعايش اليوميّ شيئًا طفوليًا، لا يتسلسل بملاعق قهوة بروفروك، ولكن بجرعات صغيرة من الطعام، مصحوبة بضوضاء المشجعين الذين يتفرجون، أو مُناقشات حقيقية لعمليات الجهاز الهضمي مع الغرباء الرؤومين. في الأيام الأقل جودة، أشعر أن هذا الخنزير ذا الأرجل الخشبية ينتمي إلي عائلة ساديّة يُمكنها أن تأكله دُفعة واحدة. باستثناء أن السرطان ليس كذلك... فهو مُراعٍ للمشاعر.

كان اليأس المُحرِّض والمثيل لقلق الكل، حتى الآن، وهو اللحظة التي تغيّر فيها صوتي ليبدو وكأنه صوت صرير للأنابيب (أو صوت خنزير صغير، رُبما)، بعدها بدأ يتحول إلى ما لا يُمكن توقّعه، حتى الهمس كان قويًا وأجش من ذي قبل، في بعض الأحيان كان يميل صوتي للاختفاء تمامًا. لقد عدت لتوّي من خطابين في كاليفورنيا، حيث استطعت بمُساعدة المورفين والادرينالين أن أتمكّن من «إبراز» صوتي، عندما حاولت أن أصرخ مُناديًا سيارة أجرة خارج منزلي، لم يخرج أيّ صوت؛ وقفت حينها مُتجمّدًا في مكاني مثل قطّة سخيفة فقدت مواءها فجأة. أعتدت أن أوقف سيّارة أُجرة من على بُعد ثلاثين خطوة في نيويورك. كان يُمكنني أيضًا أن أوصل صوتي إلى الصف الخلفي في قاعة نقاش مُزدحمة، من دون الحاجة إلى ميكروفون، قد لا يبدو هذا الأمر مدعاة للفخر؛ لكن الناس كانوا يخبرونني بأنه إذا كان الراديو أو التلفزيون في وضع التشغيل حتى لو كان في غُرفة أخرى، فيمكنهم دائمًا تمييز نبرة صوتي ومعرفة أنني كُنت في «وضع التشغيل» كذلك.

مثل الصحّة، لا يُمكن تخيّل مقدار الخسارة التي تحصل عند فقدانها، إلّا عند فقدانها بالفعل. مثل كثير من الناس، لعبت نُسخًا من لعبة «أيّهما تُفضّل؟»، والتي قد تحتوي على أسئلة مثل «أتُفضّل أن تُصبح أعمى أم أصم؟». إن الحرمان من القُدرة على الكلام، يُشبه نوبة من العجز الجنسيّ، أو فُقدان جزء من الشخصية. إلى حدّ كبير في حياتي الشخصية والعامّة، كان صوتي هو ما يُمثلنّي أنا، كانت كل طقوس المُحادثة وآدابها، بداية من تطهير الحلق والحُنجرة استعدادًا لإخبار نُكتة طويلة للغاية محاولة لجعل كلامي أكثر إقناعًا. لم أتمكن أبدًا من الغناء، لكنني كان بإمكاني أن أقرأ الشعر والنثر وقد طُلب مني ذلك في بعض الأحيان. التوقيت هو أمرٌ بالغ الأهمية، اللحظة الرائعة التي يُمكن للمرء أن يخترق فيها القصّة ويُغطيها، أو ينثر الضحك

في الأرجاء، أو يسـخر من خصمه. عشـت لحظات من هذا القبيل. أمّا الآن فـإذا أردت الدخـول في مُحادثة ما، يجب عليّ الانتباه لأشـياء أُخرى، وأعيش مـع الحقيقة المروّعة أن الناس يسـتمعون إليّ من بـاب التعاطف. على الأقل، لا يتعيّن عليهم الانتباه لفترة طويلة؛ لأنني لا أستطيع الكلام فترة طويلة.

***

عندمـا تمـرض، يُرسـل لـك الأشـخاص أقراصًـا مُدمجـة. في كثـير من الأحيـان في حالتي، كُنت أسـتلم أقراصًا تحتوي على أغـاني ليونارد كوهين؛ هـذا مـا جعلني أتعـرّف على أغنيـة "إذا كانت تلـك إرادتـك" مؤخرًا، هي بسيطة؛ لكنها مكتوبة بجمال:

إذا كانت تلك إرادتك

فأنا لا أملك اعتراضًا بعد الآن

وإن صوتي لا يزال كما اعتدته

أجد أنه من الأفضل عدم الاسـتماع لها في هذا الوقت المُتأخر من الليل. لا يُمكنـك تصوّر ليونـارد كوهين من دون أن يمرّ صوته في أذنيك. (أشـك أنني الآن من الصعب أن أهتم أو أسـمع تلك الأغنية بصوت أحدٍ آخر). في بعض الأحيان، أقول لنفسي بأنه يُمكنني الاكتفاء بالتواصل عن طريق الكتابة فقط. لكن ذلك فقط في فترة عُمري الحالية، لو كان صوتي قد سُرق منّي وأنا في الخامسـة والثلاثين، فأشـك بأنني كُنت قد أحقق ما أريد. أدين بدين كبير لسـيمون هوجارت من صحيفـة الغارديان (ابن مؤلف كتاب «اسـتعمالات القـراءة والكتابـة»)، الذي أبلغني منذ حوالي خمسـة وثلاثـين عامًا بأن مقالًا لي كـان يطرح نقاشًـا جيّدًا؛ لكنّـه كان مُملًا، نصحني أن اكتُبْ بسُرعة «أشـبه بالطريقـة التي تتحـدّث بها.» في ذلك الوقـت كُنت مُتفاجئًـا وفاقدًا للكلام

بسـبب اتهامـه لي بأنني مُمل ولم أشـكره على نحوٍ كافٍ، لكـن في الوقت الذي كان فيه خوفي من الانغماس في النفس والضمير الشخصي بشكل خاص.

في حصـص الكتابـة التـي قدّمتها فيـما بعد، كُنـت أفتتح بقـول: إنّ أيّ شـخصٍ يُمكنـه التحدث، باسـتطاعته الكتابـة أيضًا. بعد أن شـجعتهم وأنا اسـتعمل هـذه العبارات السـهلة الفهـم، قُمت بالتحـوّل إلى ثُعبـان بغيض وضخـم: "كم مـن الناس في هذا الصـف، يمكنهم القول بأنهم يسـتطيعون التحـدّث؟ أعني التحدّث حقًا" كان لذلـك تأثيرٌ مُحزن عليهم. طلبت منهم أن يقـرأوا كلّ مقالة صغيرة بصوتٍ عالٍ، يُفضّل أن يفعلوا ذلك أمام صديقٍ موثوق. القواعد الأساسـية مُتشـابهة إلى حدّ كبير: تجنّـب التعبيرات القديمة والتكـرار. لا تقل لي: إنك عندما كنت صبيًّا قد أعتدتَ أن تقرأ لك جدتك؛ إلّا إذا كانت هي لا تزال شـابّة حينها، في هذه الحالة قد تكون قد اسـتعملت مُقدّمـة أفضـل. إذا كـان هُناك شيء يسـتحقّ سـماعه والإنصـات إليه، فمن المُحتمـل جدًا أنّه يسـتحق القراءة. لـذا، قبل كلّ شيء: ابحـثْ عن الصوت الخاص بك أنت.

***

إن الإطـراء الأفضـل الـذي مـن المُمكـن أن أحصل عليه مـن القارئ، هـو عندمـا يُخبرني بأنه يقـرأ ما أكتب ليشـعر كأنما كُتب له شـخصًيا، فكّر في المؤلّفين المُفضلين لديك، وتحقق ما إن كانت كتاباتهم تبثّ فيك هذا الشعور، حصـل ذلـك في البداية غالبًا مـن دون أن تلحظ أنت ذلـك. المُحادثة الجيّدة هي شيء ينفرد به البشر: إدراك أن الحُجج اللائقة يتمّ إجراؤها وفهمها، وأنّ المُلاحظـات الباهتة تبدو كأنها أذى جسـديّ تقريبًا، هكذا تطوّرت الفلسـفة في أثنـاء الحـوارات، قبل دخول عصر التدوين. بدأ الشِـعر بالصوت بوصفه لاعبه الوحيد والأذن بوصفها مُتلقيه الوحيد. في الواقع، لا أعرف أيّ كاتبٍ

جيّد أصم. كيف يُمكن لذلك أن يحدث؟ حتى مع الإيماءات والحركات الجيّدة والمفهومة، لا يستطيع أحد تمييز التقلبات الصغيرة والنشوة الدقيقة التي يُضيفها الصوت.

***

كتب (ويستن هيو أودن) عام ١٩٣٩: «كلّ ما أملكه هو صوتي»، في مُحاولة مؤلمة لمعارضة أنصار الشر الراديكاليّ. سأل بيأس «من يستطيع الوصول إلى الصُم؟» «من يستطيع التحدّث باسم البُكم؟»

في الوقت نفسه تقريبًا، وجدت الألمانية اليهودية الحائزة على جائزة نوبل (نيلي زاكس)، أن الظهور أمام هتلر قد أفقدها القُدرة على الكلام تمامًا: سُلب صوتها نتيجة الإنكار الصارخ لكل القِيَم. إنّ لُغتنا اليومية الخاصّة بنا تُحافظ على الفكرة، عندما يموت موظفٌ حكومي مُخلص، غالبًا ما يُكتب في النعي أنه كان يملك «صوتًا» لم يستمع له أحد.

قد تظهر من الحلق البشريّ أشياء رهيبة: صُراخ، نحيب، تحريض («القُمامة العاصفة الأكثر إصدارًا للريح»، كما وصفها أودن في القصيدة نفسها)، وحتى الخداع. إنها فرصة للترويج، أصوات صغيرة ضدّ هذا السيل من الثرثرة والضوضاء، أصوات ذكيّة ومكبوحة، تتوق للخروج إلى العالم. كلّ الحِكم الصادقة، بداية من «اعتذار» أفلاطون لسقراط، تتفاعل الأصوات مع اللحظات المنطوقة وغير المكتوبة. في مواقف المُنافسة والمُقارنة مع الآخرين.

بالنسبة إليّ، أكثر ما يعلق بذهني و أنا أتذكر صداقاتي، هو تذكّر الأحاديث التي كانت تجري كأنها خطيئة لازمة، كانت هذه هي الطريقة التي اختارها كاليماخوس لتذكّر صديقه العزيز هِرَقْليطُس (كما تم تصريفه

في اللغة الإنجليزية بواسطة ويليام كوري):

قالوا لي: هِرَقْليطُس. قالوا لي: إنك ميت.

جلبوا لي أخبارًا مرّة لأسمعها، ودموعًا مرّة لأذرُفها.

بكيت عندما تذكرت عدد المرات التي سئمت فيها أنا وأنت من الشمس بالحديث.

في الواقع، إنه يدعي خلود صديقه على حلاوة نغماته:

لا تـزال أصواتك اللطيفة، ليلتك الخاصة، مستيقظة؛ لأن الموت يأخذ كلّ شيء ولا يقدر أن يأخذهم.

ربما يكون هناك كثير من الرُقي في هذا السطر الختامي...

***

في المفاهيـم الطبيّـة، يُعرّف الوتر الصوتيّ على أنه مُجـرّد "طيّة"، قطعة من الغضب تسعى للوصول إلى توأمها المُقابل وتُلامسها، وبذلك يُنتج ذلك الأمر المؤثرات الصوتية. لكنني أشعر بوجوب وجود علاقة عميقة مع كلمة «وتر»: الاهتـزاز الـذي يُمكنـه أن يُثير الذاكـرة، يُنتج الموسـيقى، يُثـير الحب، يجذب الدمـوع، ينقـل الجماهير من الشـفقة إلى الغوغاء أو العاطفـة. قد لا نكون، كما اعتدنـا على التفاخر، الحيوانـات الوحيدة القادرة على الكلام؛ لكننا الوحيدين الذين باسـتطاعتنا أن نكوّن المُحادثات الصوتية بغرض المُتعة والاستجمام. إنّ فُقدان هذه القُدرة هو حرمان كبير لمجموعة من القابليات المُتعددة.

كـان عزائـي الوحيد في العيش بمـوتٍ في أثناء هذه السـنة، هو حضور الأصدقـاء. لم يعـد بإمكاني تنـاول الطعـام أو الشراب منَ أجـل المُتعة فقط، لذلـك عندمـا يأتون، تكون الفُرصة سـانحة لتبادل الأحاديـث فقط. يُمكن لبعـض هـؤلاء الأصدقاء أن يملأوا بسـهولة قاعـة كاملة من النـاس الذين

دفعوا أموالًا فقط لسماعهم يتحدثون، إنهم مُتحدثون جيدون ويُشرفني أن أكون معهم. أذهب كلّ يوم إلى غُرفة الانتظار وأشاهد الأخبار الفظيعة من اليابان على التلفزيون، انتظر بفارغ الصبر حتى يُطلق جسدي جُرعة كبيرة من البروتينات بثُلثي سُرعة الضوء، ماذا أتمنى؟ لا علاجٌ ولا مغفرة، جُلّ ما أريده يُعبّر عنه بكلمتين بسيطتين بجمالٍ بالغ: حُريّة التعبير.

VI

لدى الموت كثير ليُقال عنه:

ليس عليك النهوض من السرير من أجله

أينما كُنت

يُحضروه إليك، مجانًا

كينجسلي أميس

التهديدات المُصوّبة تُطلق هُراءً ساخرًا.

علامات الانتحار مُمزّقة

من حناجر الأغبياء الذهبية، يُصفّر بوق بكلماتٍ خاوية

أثبتت قُدرته على التحذير

ليست الولادة ما تشغله، بل الموت.

بوب ديلان، «لا بأس يا أُمّاه (أنا فقط أنتحب)»

بالنسبة إليه، كان الكبير بالسن (كينجسلي) يُعاني من سقوطٍ مُحبط ومُربك، استلقى على السرير وأدار وجهه ناحية الحائط، لم يكن بانتظار خدمة

غُرف المُستشفى. صرخ بوجه ابنه (فيليب) بصوت مُثير للقلق «أُقتلني، أيّها الأحمق اللعين!»؛ لكنه انتظر حتى النهاية. لقد جاءه الموت من دون جلبة، من دون كثير من الضجة ومن دون أي مُقابل.

قبل تشخيص إصابتي بسرطان المريء قبل عام ونصف، أخبرت قُرّاء مُذكراتي بأنّني أُفضّل مواجهة الموت بكامل وعيي، كي أمرّ بالموت بالفعل، لا أن أكون ميتًا فقط. لا زلت أحتفظ بذلك اللهب الصغير من الفضول والتحدي، فأنا على استعدادٍ للعب السلسلة حتى النهاية، وأن لا أفوّت أيّ شيء أستطيع فعله في فترة حياتي. على الرغم من ذلك، فإن أحد الأشياء التي يفعلها هذا المرض الخطير بالشخص، هو أن يختبر كلّ المبادئ التي اعتاد الشخص عليها ووضع ثقته الكاملة بها. هُنا أجد أن قناعتي قد تزعزعت قليلًا بشأن أن «ما لا يقتلني، يجعلني أقوى».

في الواقع، أتساءل أحيانًا لمَ اعتقدت تلك العبارة عميقة.

تُنسب عادة إلى (فريدريك نيتشه):

«Was mich nicht umbringt macht mich stärker»

تُقرأ بالألمانية وكأنها مقطع شعريّ، لهذا يبدو كأن نيتشه قد اقتبسها من غوته، الذي كان يكتب قبله بقرنٍ من الزمان، لكن هل التناغم في العبارة هو سببٌ كافٍ لجعلها تبدو عميقة؟ رُبما الأمر كذلك فعلًا، أو رُبما يكمن الأمر بأنها تؤثر في العواطف. أتذكر أنني كُنت أفكّر، في اختبار اللحظات التي تنطوي على مشاعر الحُب والكراهية التي شعرت بها، إن جاز التعبير مع بعض القوة التي اكتسبتها من التجربة التي لم أستطع اكتسابها بأي طريقة أخرى. أو في أثناء مرّة أو مرّتين، وأنا أُمشي مُبتعدًا عن حُطام سيارة أو حدثٍ قد سبّب كثيرًا من الأذى عندما كُنت أقوم بإعداد التقارير. كُنت

أشـعر بشـعور قذر بالقوّة وأنا أتحكم بأعصابي؛ لكن في الحقيقة هذا لا يُمثّل العبارات التي تُشبه «نعمة الله احتضنتني وتجاهلت هذا الرجل المسكين».

***

في العـالم المـاديّ الغاشـم، الذي يشـمله الطب، هُناك كثير من الأشـياء التـي بإمكانهـا أن تقتُلك، أو لا تقتلـك وتجعلك أضعف بكثير. كـان مُقدّرًا لنيتشـه أن يكتشـف ذلك بأصعب طريقة مُمكنة. ممّا يجعل الأمر مُحيّرًا أكثر أنه ضمّنهـا في كتابه (غسـق الأوثان) عام ١٨٨٩ الذي يحتـوي على صدىً كبير لملحمـة فاغنـر. رُبّما كان خلافه مـع المُلحّن كبيرًا، حيث إنه ارتـدّ مُرتعبًا من رفـض فاغنر للكلاسـيكيات لصالح الأسـاطير الألمانية الأصـل، كان ذلك أحد الأشـياء التي أعطت قوّة نيتشـه الأخلاقيّ وثباته. بالتأكيد كان العنوان الفرعـيّ للكتاب -«كيف تمارس الفلسـفة باسـتخدام مطرقة»- يحتوي على كثير من التبجّح.

مـع ذلك، يبدو أن نيتشـه في الفترة المُتبقية مـن حياته قد أُصيب بعدوى من مرض الزهريّ، حصل ذلك على الأرجح في أثناء أوّل لقاء جنسي له على الإطلاق، سبّب له المرض صُداعًا نصفيًّا شديدًا مصحوبًا بنوبات من العمى ثـمّ تـدرّج إلى الخرف والشـلل. هـذا في حين أنّ المـرض لم يقتله عـلى الفور، سـاهم بالتأكيـد في وفاتـه ولا يُمكن بأي شـكلٍ مـن الأشـكال أن يُقال: إن المرض جعله أقوى. في سـياق تدهوره العقليّ، أصبـح مُقتنعًا بأن أهم إنجازٍ ثقـافيّ مُمكن هو إثبات أن مسرحيّات شكسـبير قد كتبهـا بيكون. هذه علامة تدلّ على انهياره الفكري والعقلي المُتقدّم.

أنـا أهتمّ بهذا الأمـر، لم يمرّ وقتٌ طويل منذ دعوتي لإذاعة مسـيحية في أعماق مُقاطعة ديكسي للمُناظرة حول الدين. حافظ فيها مُحاوري على أسلوبٍ

مُجامل ولطيف طوال الوقت، مما أتاح لي الوقت الكافي لإثبات حُججي، ثم فوجئت بالسؤال عمّا إذا كُنت أعدّ نفسي (نيتشه) بشكلٍ أو بآخر. أجبت بالنفي، قائلًا: إنني أتفق مع بعض الحُجج التيّ قدّمها الرجل العظيم؛ لكنني لم أكنّ صبرًا كبيرًا تجاهه، ووجدت أن ازدرائه للديمقراطيّة شيءٌ مُزعج بعض الشيء. حاول (هـ. ل. منكن) وآخرون استعمال بعض حججه في مُناقشة بعض نقاط الداروينية الاجتماعية الفظيعة، الجائزة بعدم جدوى مُساعدة «غير المُناسبين». إضافة إلى استغلال شقيقته المُخيفة (إليزابيث) تدهور حالة نيتشه العقلية، واستعملت أعماله كما لو كانت مكتوبة لدعم الحركة القومية المُعادية للسامية في ألمانيا، رُبما سبّب هذا لنيتشه سُمعة سيئة بعد وفاته بأنه كان مُتعصّبًا. ألحّ مُقدم البرنامج على أنّ بعض أعمال نيتشه قد تمّ إنتاجها وهو يُعاني من التدهور بسبب مرض الزهريّ. أجبته بأنني سمعت ذلك مُسبقًا ولم أكن أعرف أيّ شيء قد ينقض هذا الادعاء أو يُثبته. سمعت بعدها تنبيهًا بأن وقت المُحاورة قد شارف على الانتهاء وسمعت كلمات «هذا كلّ ما يسمح لنا الوقت به»، بعدها خرج مُضيّفي عن السياق وسألني مُتهكّمًا عن كم من أعمالي التي تتحدث عن الإله تأثرت بسبب مرضي بالطريقة نفسها! كان يجب عليّ أن أرى ما كان المقدّم يروم إليه منذ البداية. لم يترك لي مجالًا للرد.

***

في نهاية المطاف، في ظروف بائسة في مدينة تورينو الإيطالية، ارتبك نيتشه برؤيته لحصان يُضرب في الشارع بقسوة. اندفع ليضمّ ذراعيه حول رقبة الحيوان، عانى حينها من بعض النوبات الرهيبة التي يبدو أنها قد استمرّت لبقية حياته المليئة بالأسى والأشباح التي تُطارده تحت رعاية والدته وشقيقته. من المُحتمل أن تكون صدمة تورين شيئًا مُثيرًا للاهتمام، حدثت في

عام ١٨٨٩ وكلّنا نعلم أن نيتشه تأثر بشدة عام ١٨٨٧ عند اكتشافه لأعمال دوستويفسكي. يبدو أن هُناك صلة مُخيفة بين ما حدث في الشارع والحُلم الفظيع الذي عاشه راسكولنيكوف في الليلة التي سبقت ارتكاب جرائم القتل الحاسمة في رواية (الجريمة والعقاب). الكابوس المُستحيل نسيانه بمجرّد قراءته، يتضمّن ضربًا بشعًا لحصانٍ حتى الموت. يقوم صاحب الحصان بجلده على عينيه، ثُم يُحطّم عموده الفقري باستخدام العصا، ويدعو المارّة لمُساعدته بفعلته. إن كانت المُصادفة البشعة هذه كافية لطفح الكيل لدى نيتشه، يجب أن يكون أضعف بكثير، أو قابلًا للانكسار، بسبب مُعاناته الأُخرى غير ذات الصلة. هذه المحنة إذًا لم تُساعد في جعله أقوى.

أعتقد الآن أن ما يقصده هو أنّه قد حقّق أقصى استفادة من فتراته بين الألم والجنون؛ ليضع مجموعاته من الأقوال الحافلة بالتناقض. قد يكون هذا أعطاه انطباعًا بالبهجة والانتصار، واستعمل رغبته في السُلطة.

خُذ مثالًا من فيلسوف مُختلف تمامًا وأكثر اعتدالًا، أقرب لمفاهيم عصرنا. كان البروفيسور الراحل (سِدني هوك) من الماديين والبراغماتيين المشهورين، الذين كتبوا أُطروحات مُعقّدة ضمّت توليفة من أعمال جون ديوي وكارل ماركس. هو أيضًا كان مُلحدًا لا يَلين. في نهاية حياته الطويلة، أُصيب بالمرض بشكل خطير وبدأ بالتفكير في المُفارقة التي تمكّن عبرها من الاستفادة من مستوى رعاية غير مسبوق تاريخيًا، بينما كان هُناك من يتعرضون في الوقت نفسه لدرجة من المعاناة لم تكن الأجيال السابقة قادرة على تحملها. التفكير في هذا يُعدّ تجربة مروعة، قرر أنه سيموت بعد كل شيء:

استلقيت عند نقطة الموت. تمّ علاج قصور القلب الاحتقاني عن طريق تصوير الأوعية الدموية التي تسببت بالسكتة الدماغية. الفواق العنيف والمؤلم، الذي يستمر لعدة أيام وليالٍ؛ يؤدي إلى عدم القدرة على تناول

الطعام. أصبح جانبي الأيسر مشلولًا، هو وأحد أوتاري الصوتية. شعرت أنني أغرق في بحر من الوحل. في إحدى الفترات الواضحة في أثناء تلك الأيام من العذاب، طلبت من طبيبي التوقف عن كل الخدمات الداعمة للحياة أو إظهار كيفية القيام بذلك.

رفض الطبيب هذا الالتماس، وبدلاً من ذلك طمأن هوك أنه «في يوم من الأيام سيقدّر حكمة رفضه.»؛ لكن الفيلسوف الرواقي، من وجهة نظر الحياة المستمرة، لا يزال يُصرُّ على أنه تمنى أن يُسمح له بإنهاء حياته. قدّم ثلاثة أسباب: يُمكن لسكتة دماغية مؤلمة أن تضربه؛ مما يُجبره على المعاناة مرة أخرى. كانت عائلته تمر بتجربة فظيعة. الموارد الطبية كانت تُنفق بلا فائدة. في سياق مقاله، استعمل عبارة قوية لوصف موقف الآخرين الذين يعانون أمرًا مثل هذا، مُشيراً إليهم على أنهم يرقدون على «قبور الفراش».

إذا كانت استعادة الحياة لا تعدّ «شيئًا لا يقتلك»، فلماذا يُعدّ كذلك؟ ومع ذلك، لا يبدو أن هناك منطقاً ذا معنى جعل من سيدني هوك «أقوى». في الواقع، إذا كان هناك أي شيء، يبدو أنه قد ركّز انتباهه على الطريقة التي يبني بها كلّ ضعف على سلفه ويصبح بؤسًا تراكميًا واحدًا مع نتيجة واحدة ممكنة. بعد كل شيء، إذا كان الأمر خلاف ذلك، فإن كلّ هجوم، كلّ سكتة دماغية، كلّ زوبعة حقيرة، كلّ هجمة طينية، ستبني بشكل جماعي وتعزز المقاومة؛ وهذا أمر سخيف. لذا فقد تركنا شيئًا غير معتاد تمامًا في سجلات المقاربات غير العاطفية للانقراض: ليستْ تمني الموت بكرامة ولكن الرغبة في الموت.

***

تركنا البروفيسور هوك في النهاية عام ١٩٨٩، وأنا أصغر منه جيلًا.

لم أبحر بالقرب من النهاية المريرة كما فعل. كما لم أفكر بعد في إجراء مثل هذه المحادثة الشاقة مع الطبيب؛ لكنني أتذكر الاستلقاء هناك والنظر إلى جذعي العاري، الذي كان مغطى تقريبًا من الحلق إلى السرة بطفح أحمر. كان هذا نتاج قصف استمر لمدة شهر بالبروتونات التي أحرقت كل السرطان في العقد الترقوية والقصبة الهوائية، بالإضافة إلى الورم الأصلي في المريء. وضعني هذا في فئة نادرة من المرضى الذين قد يدّعون أنهم تلقوا الخبرة المتقدمة للغاية والمتوفرة بشكل فريد في مركز إم دي أندرسون للسرطان في هيوستن. لقول: إن الطفح الجلدي سيكون بلا جدوى؛ أستلقي لأيام متعاقبة، أحاول عبثًا تأجيل اللحظة التي يجب أن أبلع ريقي فيها. في كل مرة أبتلع يتدفق مدّ جهنمي من الألم في حلقي، ينتهي بما يشبه ركلة بغل في ظهري الصغير. تساءلت: كيف كانت لتبدو الأشياء من دون الطفح الأحمر والتقرّحات، ثم فكرت في فكرة مارقة: إذا قيل لي عن كل هذا مسبقًا، هل كُنت سأختار العلاج؟ كانت هناك لحظات كثيرة عندما كنت ارتطم بها، تجعلني أشكّ في ذلك بجديّة.

من المحتمل أنه أمر رحيم باستحالة وصف الألم من الذاكرة. من المستحيل أيضًا التحذير. إذا حاول أطبائي أن يخبروني مقدمًا، فربما كانوا قد تحدثوا عن «الانزعاج الشديد» أو ربما عن إحساس حارق. أنا أعرف فقط أنه لا يوجد شيء على الإطلاق يمكن أن يجهزني لهذا الشيء الذي بدا أنه يسخر من مسكنات الألم ويُهاجمني في قلبي. يبدو لي الآن أن خيارات الإشعاع قد نفدت في تلك المرحلة، وعلى الرغم من أن هذه ليس بأي حال من الأحوال أخبارًا جيدة؛ إلا أنه يجنبني أن أتساءل عما إذا كُنت أستطيع أن أتحمّل طواعية مسار العلاج نفسه مرة أخرى.

ولكن من حسن الحظ أيضًا، لا يمكنني الآن استحضار ذكرى شعوري

في أثناء تلك الأيام والليالي المتوترة. ومنذ ذلك الحين، كان لدي بعض فترات القوة النسبية. لذلك بصفتي رجلًا عقلانيًا، يجب أن أوافق على أنني إذا رفضت المرحلة الأولى، وبذلك تجنبت المرحلتين الثانية والثالثة، فسوف أموت بالفعل. وهذا أمرٌ ليس له جاذبية.

ومع ذلك، لا مفر من حقيقة أنني أضعف بكثير مما كنت عليه آنذاك. منذ متى يبدو أنني قدمت لفريق الأطباء الشمبانيا ثم قفزت برشاقة في سيارة أجرة. في أثناء إقامتي بعدها في المستشفى، في واشنطن العاصمة، أعطتني المؤسسة التهاب رئوي بالمكوّرات العنقودية (وأرسلتني إلى المنزل مرّتين معه) كاد أن يقتلني. إن الإرهاق الذي أوقعني نتيجة لذلك احتوى أيضًا على التهديد المميت بالاستسلام لمن لا مفر منه: كنت أجد غالبًا الضربة القاتلة والاستسلام يغمرني بشكل كئيب لأنني فشلت في محاربة رعايتي العامة. شيئان فقط أنقذاني من خيانة نفسي وتركها: زوجة لم تسمعني أتحدث بهذه الطريقة المملة وغير المفيدة، وكثير من الأصدقاء الذين تحدثوا بحرية أيضًا. أوه، ومسكن الألم المنتظم. كم كُنت سعيدًا بيومي حيث رأيت الحقن قيد التحضير. رأيت الأمر بوصفه حدثًا حقيقيًا.

***

أنا أكتب هذا بعد أن حصلت على حُقنة لمحاولة تقليل الألم في ذراعي ويديّ وأصابعي، التأثير الجانبي الرئيس لهذا الألم هو خدرٌ في الأطراف، مما يملأني بالخوف غير العقلاني من أنني سأفقد القدرة على الكتابة. من دون هذه القدرة، أشعر بالتأكيد مقدمًا، أن «إرادتي في الحياة» ستتضاءل بشكل كبير. غالبًا ما أقول بشكل كبير : إن الكتابة ليست فقط رزقي ومعيشتي، بل هي حياتي نفسها، وهذا صحيح. تقريبًا مثل فقدان صوتي المهدّد، والذي يتم تخفيفه حاليًا عبر بعض الحقن المؤقتة في أوتاري الصوتية، أشعر بأن

شخصيتي وهويتي تتلاشى في أثناء التفكير في الأيدي الميتة وفقدان أحزمة الإرسال التي تربطني بالكتابة والتفكير.

هذه نقاط ضعف تقدمية ربما تكون قد استغرقت عقودا للحاق بي في الحياة «الطبيعية»، ولكن كما هو الحال في الحياة الطبيعية، يجد المرء أن كلّ يوم يمر يمثل طرحًا أكثر فأكثر بلا هوادة من أقل وأقل. وبعبارة أخرى، فإن العملية تقوم بإخلالك وتقرّبك من الموت. كيف يمكن أن يكون خلاف ذلك؟ تمامًا كما بدأت بالتفكير على هذا المنوال، صادفت مقالًا حول علاج اضطراب ما بعد الصدمة. نحن نعلم الآن، من تجربة كلّفتنا كثيرًا، عن هذا المرض أكثر بكثير مما اعتدنا عليه. من الواضح أن أحد الأعراض التي تُعلن عبرها هو أن المخضرم القوي سيقول، ويسعى إلى تسليط الضوء على تجربته: أنا «ما لم يقتلني جعلني أقوى»، هذه إحدى المظاهر التي يأخذها «الإنكار».

لقد انجذبت إلى أصل اللغة الألمانية لكلمة «صارخ»، التي يستعملها نيتشه، ستاركير، والتي تعني «أقوى». في اليديشية[٢٠]، فإن تسمية شخص ما باسم shtarker هو الفضل في كونه متشددًا، ورجلًا قويًا، وعاملًا مجتهدًا. حتى الآن، قررت أن آخذ كل ما يمكن أن يلقي به مرضي علي، وأن أُحافظ على روحي القتالية حتى مع أخذ انحداري الحتمي. أكرر: هذا ليس أكثر مما سيحصل لأي شخصٍ سليم بصورة أبطأ. إنه قدرنا المشترك، في كلتا الحالتين، على الرغم من ذلك يُمكن للمرء الاستغناء عن القيم العليا التي لا ترقى إلى مستوى فواتيرها الواضحة.

***

(٢٠) اللغة اليديشية: هي لغة يهود أوروبا، نمت في أثناء القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين من لغات عدة منها الآرامية والألمانية والإيطالية والفرنسية والعبرية. يتحدثها ما يقارب ٥,١ ملايين شخص حول العالم، أغلبهم يهود أشكناز.

ربما كُنت قد كوّنت استثناءً واحدًا من قاعدتي الناشئة أن نيتشه لا يمكن الوثـوق به، أو في ادعائي لنفسي أن لدي مواردا لم أكن أملكها حقًا. إن جزءًا كبيرًا من الحياة مع السرطان لها علاقة بالدم، سيجد المصاب نفسه «يُعطي» كمية كبيرة من السوائل، إما لتسهيل فتح القسطرة أو للمساعدة في اختبار مستويات السكر في الدم والمواد الأخرى. لسنوات وجدت أنه من السخف الخضوع لاختبارات الدم الروتينية. كنت أسير، أجلس، وأتحمل ضغطًا قصيرًا من عاصبة حتى يُصبح الوريد القابل للاستخدام متاحًا أو يمكن الوصول إليه، ثم ستسمح طعنة صغيرة واحدة بملء الأنابيب والحُقن الصغيرة ذات الصلة.

مع مرور الوقت، توقف هذا عن كونه أحد المعالم البارزة في اليوم الطبي. كان الفاصد يجلس، ويأخذ يدي أو معصمي في يده، ويتنهد. يمكن رؤية البقع الحمراء و الأرجوانية وهي تملأ ذراعي بالفعل، مما يمنح الذراع نظرة «مدمنة» محددة. الأوردة نفسها مغمورة في أسرّتهم، إما مجوفة أو مطحونة. من حين لآخر، كانوا يتعاونون مع استراتيجية تستند إلى المُدمنين، عن طريق ضرب الأوردة ببطء بأطراف الأصابع المشدودة، لكن هذا نادرًا ما ينتج عنه نتيجة قوية..

بالإضافة إلى ذلك، كان على المرء أن يتوقف عن التظاهر بأن هذا العمل كان غير مؤلم، لا مزيد من الحديث الساخر عن «مجرّد وخزة صغيرة». في الواقع، لا يؤلم إدخال الإبرة. لا، الأمر المؤلم بحقّ هو تحريكها ذهابًا وإيابًا، على أمل أن تتمكن من اختراق الوريد بشكل صحيح وإطلاق السوائل اللازمة. وكلما تكرر ذلك، كلما كان ذلك مؤلمًا أكثر. يوضح هذا العمل بأكمله في العالم المصغر: «المعركة» ضد السرطان تحولت إلى صراع من أجل إخراج بضع قطرات من حيوان ثديي كبير دافئ لا يمكنه توفيره.

عندمـا أصبـح هذا النوع من الأشـياء أكثر شـيوعًا، بـدأت أتولى مهمة المعنويات - الداعم. عندما تعرض المُمرضة التوقف، أحثها على الاسـتمرار وأؤكد لها أنني أتعاطف معها، وسأذكر عدد المحاولات التي تمت في مناسبات سـابقة، من أجل تحفيز جهود أكبر. كانت صورتي الذاتية هي صورة المُهاجر الإنجليزي الساذج، الذي يرتفع فوق عذاب عصا إبرة صغيرة.

أظن أن كل ما لم يقتلني سـيجعلني أقوى... أعتقد أن هذا بدأ يتلاشـى في اليـوم الـذي طلبـت فيه "الاسـتمرار" بعد إحدى عـشرة محاولة لإدخال الإبـرة، وكنت آمل سرًا في فرصة للاستسـلام والذهـاب إلى النوم. ثم فجأة التفـت وجـه الخبير القلق فجأة وهو يهتف: «حسـنًا، المـرّة رقم ١٢ هي التي ستنجح» ، وبـدأ الخيط الواعي للحيـاة يفكّر في المحقنة. منـذ ذلك الوقت، بدا من السـخف أن أؤثر على فكـرة أن هذا الخداع من جانبي يجعلني أقوى، أو يجعـل الآخريـن يقومون بأداء أكثر قوة. بغضّ النظـر عن وجهة نظر المرء عـن النتيجة التي تتأثر بالمعنويـات، يبدو من المؤكد أنه يجب الهروب من عالم الوهم قبل أي شيء آخر.

VII

قبـل أسـابيع معـدودة، بـدأت يومـي وأنا طريـح الفـراش في حالة من الضُعف الحاد والألم الشـديد، كُنت عاجزًا عن الحركة ولكنّي قد استعدت وعيي، سمعت صوتًا مُهدئًا يقول: «الآن قد تشعر بوخزةٍ بسيطة.»، شعرت بعدهـا في الحـال بالطمأنينـة بطريقة فريـدة؛ لأن هذا الصوت وهـذا التعبير باللفظ البسـيط، يعني أن الألم سـيزول الآن وسـتعود أطرافي لي، وأسـتطيع حينها بدء يومي، وهذا بالفعل ما جرى.

مـاذا لـو كان هذا الصوت الـودود، كما خُيّل إليّ ذات مرّة وأنا مُشـوّش الوعـي في محنـة مُماثلة، يحمل نـبرة ولو كانت بسـيطة من السُـخرية؟ ماذا لو كـان وكأنـه يقول «لـن يؤذيك هذا، ليس بقـدر كافٍ»؟ لكان هـذا الأمر قد أخـلّ موازين القوى كلها بعنف، فأنا مُجرّد من أيّ طريقة للدفاع، مُتحجّر في مكاني. حينها سأتسـاءل فورًا، إلى أيّ أمدٍ علـيّ أن أتعايش مع هذا العذاب؟ يبدو أنّ الجلّاد قد بدأ عمله المُعقّد للتو.

أُشـدد عـلى أن عمله مُعقـد؛ لأن التعذيـب في الحقيقة مسـألةُ إعطاء ألمٍ شـديد لدرجة وحشيّة، اكتشفت ذلك عندما كُنت ضحيّة للتعذيب بالفعل، حيـث يتعلّق الأمر في البداية بمُعايرة دقيقـة. «كيف حالك اليوم؟ هل هُناك أيّ شيء يُزعجـك؟» يزيـد الطـين بلّة هـو أن الطب الحديث قـد تراجع عن اسـتعمال التعابير المُلطّفة، والتملّص المهذب «أهناك أي شيء يُزعجك؟» هو أحد أبرز الأمثلة على ما أقول.

هُناك طريقة أُخرى لاستعمال التعابير المُلطّفة، حيث تمّ وضعها في خُطة منهجية؛ وبذلك قد يسـمع المرء سؤالًا مثل «هل قابلت الفريق المسؤول عن ’إدارة الألم‘ بعـد؟» بمُجـرد أن تـسرح بخيالك أو تسـمعها بطريقـة مُختلفة، قـد تبـدو الجُملـة وكأن القصـد بها هـو التعذيـب، أو إظهـار الأدوات التي ستُسـتخدم عـلى الضحيّة أمامه، أو وصف مجموعة مـن التقنيات. (يُزعم أن غاليليـو غاليـلي تعـرض لهذا الأمر في أثنـاء خضوعه للضغط الـذي دفعه في النهاية إلى التراجع.).

أصبحـت ضحيّة تعذيب؛ لأنني أردت أن يكون لدى قُرّاء مجلة (ڤانيتي فـير) فكرة عن الفعـل الدنيء «الإيهام بالغـرق[٢١]» كانـت الطريقة الوحيدة

(٢١) الإيهام بالغرق: أسـلوب تعذيب يُستخدم لإجبار المُعتقل على الاعتراف، يتمّ عبر تقييد المُعتقل وتثبيته على الأرض بحيث لا يسـتطيع الحركة مع وضع قطعة قماش أو ما شـابه في فمه

الموجودة لنقل الصورة ورفع الغموض، هو أن أُعرّض نفسي لهذه «التجربة». بالطبع لن تكون التجربة حقيقية وصحيحة -إذا ما كُنت أنا في موضع السيطرة- لكنني كُنت مُصمّمًا قدر الإمكان على اكتشاف ما يمرّ به الشخص «الموهم بالغرق» بحق؛ لذلك قُمت بالاستعانة ببعض أفراد القوّات الخاصّة السابقين الأشدّاء للغاية، كانوا يعرفون أنهم يخرقون القانون الأمريكي على أراضٍ أمريكية، قُمت بترتيب موعد في تلال ولاية كارولينا الشمالية. قبل أن نتمكن من البدء، كان عليّ التوقيع على وثيقة قانونية تعوّضهم عن الضرر الذي قد يلحق بهم إذا ما قتلوني بسبب الإصابة بصدمة جسدية أو نفسية.

رُبما أنك سمعت بأن ما يحدث في حالة «الإيهام بالغرق» ما هو إلّا «مُحاكاة» لإحساس الغرق. خطأ، ما يحدث لك هو أنّك تغرق ببطء من دون أن تتمكن من الفرار، وإن تمكنت في أي وقت من التهرّب من قطرات الماء المُميتة، سيلاحظ مُعذّبك ما تفعل، حينها سيقوم بإجراء تعديلٍ بسيط ولكنّه فعّال. عندما قابلت مُعذّبي في وقتٍ لاحق، كُنت مُهتمًا بشكل خاص في هذه الأمور. أخبرني بتبجّح «نعم، لدينا كثير من الحركات التي تُنجز المُهمّة ولا تترك أثرًا». مُجددًا، تُلاحظ في خطابه نوعًا من الكبرياء، أسلوبٌ تقنيّ من النغمة الإنسانية لكن بتعبير مهنيّ؛ إنها لُغةُ المُعذّبين...

السبب الذي جعلني أكتب عن هذا الموضوع باستعمال هذا السياق، هو أنني مُنذ قُمت بكتابة ونشر تلك المقالة، التي كانت قبل تشخيصي بسرطان المريء، كُنت أُعاني من بعض الإجهاد اللاحق للتعذيب، نوعٌ من الإجهاد رُبما لم يتمّ تصنيفه والكلام عنه بعد. في حالتي الخاصّة على أيّ حال، يتعلّق

وتغطية وجهه بما يشبه كيسًا بلاستيكياً، ثم يُسكب الماء على وجهه بحيث يتخيل أنه يغرق - المُترجم.

الأمر بالاختناق. ويمكن أن يؤدي «تطلّع» الرطوبة إلى فيضان من الذعر مع الشعور بالتشوّش بدخول أعراض أكبر وأكثر فتكًا من الالتهاب الرئوي. في كل يوم، أجد نفسي مضطرًا لأجهز نفسي لأتغذى بالأنبوب عبر جهاز للتغذية السائلة، أو لغسله بدرجات مختلفة من الغمر، أو أن أكون ضعيفًا للغاية؛ لذا فأنا محظوظ حقًا لأنني لم أضطر أبدًا إلى سماع همسة البغيض المعذبة، أو تلخيص فكرة أنني مجرد تجعد أو تطور بعيدًا عن الخوف الشديد و «الكرب» (كلمة عالية جدًا على مقياس التعبير الملطف)، لكنني أعرف الآن كيف يمكن سحب الخدعة.

زُرت كثيرًا من المُستشفيات الأمريكية العظيمة في أثناء تجربتي، واحدة منها على الأقل كانت مشهورة بأنها تُدار من قبل نظام ديني تاريخي، في كلّ غُرفة من غُرف هذا المستشفى، بغض النظر عن أي اتجاه تستلقي فيه على السرير، ستُلاحظ صليبًا معدنيًا أسودَ كبيرًا مُثبتًا على الحائط بقوّة. لم يكن لديّ اعتراض على هذا الأمر؛ لأن الصليب كان هو شعار المستشفى. (لا أميل إلى افتعال المشاكل مع القساوسة كي يكون لديّ مادة أكتب عنها. في تكساس، على سبيل المثال، في مُنشأة جديدة مُصمّمة خصيصًا لرفع الأبراج لأكثر من عشرين طابقًا، أقنعتهم بأنه شيءٌ أحمق بأن يتجاوزوا الطابق رقم ١٣ وينتقلون من الطابق رقم ١٢ إلى رقم ١٤ مُباشرة. بالتأكيد لا أحد يدخل هنا ليشكو من مخاوف كونية ناتجة عن رقم، ولا أحد سيخرج؛ لأن المبنى يحتوي ذاك الرقم: يبدو أننا غير قادرين تمامًا على التمييز كيف بدأت هذه الخرافات الصغيرة الرهيبة.)

ومع ذلك، فإنني أعلم أيضًا أنه كان هُناك كثير من الممارسات، تمّت في أثناء حروب الدين وحملات محاكم التفتيش، حيث يتمّ إخضاع المحكومين وإجبارهم على النظر للصليب في اثناء الإعدام حتى تحين لحظة وفاتهم. في

بعض لوحات الاوتو دا في[٢٢] الكبرى، أو «رسوم الإيمان»، لا أعتقد أنه باستثناء بعض عمليات الحرق الحية التي التقطها غويا في بلازا مايور، نرى الشعلة والدخان الناتج عن المنطقة المجاورة للضحية، ثم تثبيت الصليب نفسه بشكل قاتم أمام عينيه. يجب أن أقول: إنه حتى لو تم القيام بذلك الآن بطريقة أكثر «مسكنة»، فهذا يجعلني أشعر بالرفض على أساس ارتباطاتها السادية السابقة. هُناك مستشفيات عاديّة وممارسات طبية تذكر الناس بالتعذيب الذي كانت ترعاه الدولة. في حالتي الخاصة، هناك أيضًا ممارسات لا يُمكنني فصلها عن جحيم الممارسات السابقة، حتى التفكير في بعض سوء استخدام الماء أو الغاز، مثل مجموعات علاج التنفس أو «البخاخ»، يمكن أن يكون أكثر من كافٍ ليجعلني أشعر بمرض خطير. عندما كنت أفكر لأول مرة في عنوان محتمل لهذا الكتاب، فكرت في ضم سطر «فاحش مثل السرطان» من قصيدة ويلفريد أوين المرعبة عن الموت على الجبهة الغربية، يصف النص ردّ فعل مجموعة من البريطانيين المتعبين، تم القبض عليهم في العراء في أثناء هجوم بالغاز كانوا غير مستعدين له:

غاز! غاز! بسرعة يا أولاد! - نشوة من التخبّط،

ارتداء الخوذ الخرقاء في الوقت المناسب.

لكنّ شخصًا كان لا يزال يصرخ ويتعثر،

ويتطاير مثل رجل في النار أو الجير...

خافت،

---

(٢٢) الاوتو دا في: تكفير علني للخطيئة كان يخضع له المدانون بالهرطقة أو الردة إبان سطوة محاكم التفتيش الإسبانية والبرتغالية، وكان يتبعه تنفيذ السلطة المدنية للحكم الذي حُكم به على المدان، والذي قد يصل في كثير من الأحيان إلى الإعدام حرقًا. اشتهرت مواكب "الأوتو دا في" في إسبانيا منذ القرن الخامس عشر. - المُترجم.

عبر الأجزاء الضبابية والضوء الأخضر السميك،

كما هو الحال تحت بحر أخضر، رأيته يغرق.

في كل أحلامي، أمام مرآي العاجز، يغرق في وجهي، يفرغ، يختنق، يتلاشى.

إذا كان بإمكانك أيضًا في بعض الأحلام الخانقة أن تسير خلف العربة التي وضعناها فيه،

وتُشاهد العين البيضاء تتلوى في وجهه،

وجهه المعلق، مثل سعال الشيطان من الخطيئة؛ إذا كنت تستطيع أن تسمع،

في كل هزة، الدم يتأرجح من الرئتين المفسدة، فاحش مثل السرطان،

مرير مثل قرحة القروح المستعصية على لسان الأبرياء، - يا صديقي،

لن تخبر بهذه البهجة العالية للأطفال المتحمسين لبعض المجد اليائس،

الكذبة القديمة: من الرائع والمجد أن يموت المرء من أجل الوطن.

عندما أجدني أيضًا أحيانًا في وعي سابق لأوانه بسبب الكابوس أو الإحساس بالاختناق؛ أدرك مدى أهمية أن تكون حدود الدواء خاضعة للمُراقبة بإحكام وقوة. أنا أقدر أنه في المهنة نفسها لن يكون هُناك أيّ تنازل لأي تهاون لهذا المعيار. يجب أن يخجل العاملون في ذلك المستشفى الشهير من المهمة التاريخية التي قام به نظامهم في تقنين التعذيب وتطبيقه بشكل مروع، ولدي الحق نفسه، إن لم يكن من واجبي أن أخجل بالقدر نفسه من سياسة التعذيب الرسمية التي تتبناها حكومة أوراق الجنسية التي حصلت عليها مؤخرًا.

VIII

تذكّر، أنت فانٍ كذلك. كُنت أسرح بخيالي إلى كلّ ما هو سقيم، أمّا الآن فلا يُمثّل الأمر لي سوى أنه ورم صغير مألوف، هذا الدخيل لا يُريد مني أيّ شيء، إذا قتلني فسيموت هو كذلك، لكن يبدو أنه مُتزمّت برأيه ويمتلك غرضًا مُحددًا، مع ذلك لا توجد سُخرية قدرٍ حقيقة هُنا، يجب الحرص على عدم الشعور بالشفقة على الذات، أو التركيز عليها.

فخور بنفسي دائمًا بسبب المنطقية والرواقية التي أتمتّع بها. ليس لديّ جسد؛ أنا جُثّة. ومع ذلك تصرفت بوعيٍ وبانتظام كما لو أن كلّ شيء يجري على ما يُرام، أو كما لو كان هُناك استثناء في حالتي. هل أشعر بالتعب والغثيان في أثناء جولتي؟ إذًا عليّ مُراجعة الطبيب عندما تنتهي!.

خسرت أربعة عشر پاوندًا من دون تعمّد، أصبحت أنحف، لكن لا اشعر بأنني أخفّ؛ لأن المشي إلى الثلاجة يُشبه المسيرة القسرية. اختفت أيضًا البثور والاكزيما التي لم يستطع أيّ طبيب تخليصي منها، يبدو أن السموم التي اتناولها مُثيرة للإعجاب بالفعل، وتزيد ببركة النوم كذلك... لكن يبدو النوم مضيعة للحياة بطريقة ما، فهناك كثير من الوقت المُستقبلي لأكون نائمًا فيه.

قام الرجال اللُطفاء المزوّدون بقناني الأوكسجين وسيارة إسعاف بالتصرّف معي برفق وهم ينقلونني عبر حدود الممر، في دولة أُخرى.

كان الدخيل يحفر بداخلي حتى عندما كتبت الكلمات الساخرة بشأن وفاتي قبل الأوان. توجد الآن كثير من الإشادات لدرجة يبدو أن شائعات حياتي قد تم المبالغة فيها أيضًا.

صباح الخزعة، استيقظْ وقُلْ بغضّ النظر عمّا سيحدث، فهذا آخر أيام حياتي التي اعتدت عليها. لا ادعاء بالشعور بالحيوية والشباب بعد الآن، من الآن فصاعدًا لا شيء سوى المشقّة.

من المُذهل كيف صمد كلّ من القلب والرئتين والكبد لكلّ هذه الفترة.

الصلاة: تناقضات مُثيرة للاهتمام على حساب أولئك الذين يقدمونها - من السهل للغاية الهروب على طريقة باسكال - ابقَ معي على الجانب الأيمن من الرهان هذه المرة: أي إله يمكنه تجاهل مثل هذه الدعوات؟ الشيء نفسه، أولئك الذين يقولون إنني أُعاقب، يقولون: إن الله لا يمكن أن يفكر في شيء أكثر انتقامًا من السرطان للشخص الذي يُدخّن بشراهة.

اختفى شعر الأنف: سيلان الأنف لا يتوقّف. هُناك تناوب بين الإمساك والإسهال...

قبل بضع سنوات، تم تشخيص الصحفي البريطاني (جون دايموند بالسرطان) حينها، حوّل حالته إلى عمود أسبوعي. عن حق، حافظ على النغمة المرحة نفسها التي ميزت بقية أعماله: اعترف بالجبن والذعر إلى جانب الفضول والشجاعة العرضية. بدت قصّته فريدة تمامًا: هذا ما استلزمه التعايش مع السرطان، كما أن المرض لا يجعلك شخصًا مختلفًا، أو يمنعك من الدخول في مُشاجرات مع زوجتك. مثل كثير من القراء الآخرين، كنت أحثه بهدوء من أسبوع لآخر؛ ولكن بعد عام وأكثر... حسنًا، حدثت كثير من التراكمات السردية حتمًا. مهلًا، علاج معجزة! مهلًا، كُنت أمزح معك!. على الرغم من ذلك - كيف يمكنني أن أضع هذا؟ - قد يشكو ناقد أدبي صارم من أن قصته كانت تفتقر إلى وجود النهاية...

تميل بعض أنواع المواساة إلى التلميح للنهاية، إما عن طريق الرسائل

التي تستعمل الأفعال الماضية فقط، أو بعض الهِبات الأُخرى من النوع الوداعيّ. إرسال الزهور ليس لطيفًا كما قد يبدو.

أنا لا أحارب السرطان أو أُقاتله - هو من يُحاربني.

شجاع؟ هاه! احتفظْ بشجاعتك في معركة لا يُمكنك الهروب منها!

سول پيلو: الموت هو الحافة الخلفية المُظلمة التي تحتاجه المرآة حتى نستطيع أن نرى ما عليها.

أشعر بالدوّار كأنني رُكلت إلى الأمام في الزمن: قُذفت نحو خط النهاية. محاولات أن أمتنع عن التفكير بالورم، تعني أنّ عليّ التوقف عن التفكير نهائيًا.

علم الأورام/ علم الوجود: في ظل النظام الديني القديم، ستحكم عليك السماء ببساطة لتعذيبك بشدّة ثم إعدامك. ميشيل دي مونتين: «أقوى أساس للدين هو ازدراء الحياة».

تسأل كارول عن زفاف ريبيكا «هل تخشى ألا ترى إنجلترا مرة أخرى؟»

حتى التعبيرات العادية مثل «تاريخ انتهاء الصلاحية»... هل سأعيش أكثر من تاريخ صلاحية بطاقة ائتماني؟ ماذا عن تاريخ صلاحية إجازة القيادة الخاصّة بي؟

يقول بعضهم: أنا باقٍ في المدينة حتى يوم الجمعة، هل ستكون موجودًا حينها؟ يا له من سؤال!

الأسوأ من ذلك كله هو «الدماغ الكيميائي»، مُمل، مذهول. ماذا لو كان التعذيب الفخم الذي طال أمده هو مُجرّد مقدمة لعملية إعدام مروعة.

يتحول الجسم من صديق موثوق به إلى شيء مُحايد ثُم إلى عدو خائن...

مارسيل بروست؟

لا توجد حتى محاولات للعلاج...

الأعمال الورقية لعنة في بلدة السرطان.

بؤس أن تُشاهد نفسك على مقاطع الفيديو القديمة أو على يوتيوب...

عليك التعوّد على سماع الأخبار السيئة

انظر إلى قصيدة شيمبورسكا عن التعذيب والجسد مثل مستودع للألم.

من رواية (آلان لايتمان) المعقدة عام ١٩٩٣. المُسماة (أحلام أينْشتاين) حيث تكون أحداثها في برن عام ١٩٠٥:

مع الحياة اللانهائية تأتي قائمة لا نهائية من الأقارب، لا يموت الأجداد، ولا أجداد الأجداد، ولا العمّات... وهكذا، عبر الأجيال، كُلهم أحياء ويقدمون المشورة. الأبناء لا يهربون من ظلال آبائهم، ولا البنات من أمهاتهن، لا أحد يتصرّف من تلقاء نفسه... هذه هي تكلفة الخلود، لا يوجد شخص سالم. لا يوجد شخص حُر.

* تُركت هذه الشظايا من المُلاحظات غير مكتملة وقت وفاة المؤلف.



صديقي كريستوفر هيتشنز

غرايدون كارتر

في أثناء مأدبة عشاء أُقيمت في لوس أنجلِس في ربيع هذا العام، مرّ بي مُمثّل شاب يُدعى (إميل هيرش) وكانت تبدو عليه علامات الحماس لدرجة كبيرة، كان يعرف أنني عملتُ مع كريستوفر هيتشنز لسنين طويلة، كلّ ما ابتغاه هذا الشاب هو أن يتحدّث عن هيتشنز مع أحدٍ له معرفة سابقة به، قال لي: إنه قد قرأ كتاب (هيتش [٢٣] ٢٢) وتأثّر بكتابات هيتشنز بطريقة لم يتأثر بها من قبل.

في الأشهر التي أتت بعد وفاة كريستوفر هيتشنز، كانت لديّ لقاءات مُماثلة مع شباب لم يترددوا بالإفصاح عن سيل المشاعر التي بثتها كتابات هيتشنز فيهم. بالتأكيد لن أُبالغ إنْ قُلت: إنّ كريستوفر نفسه قد سمع مديحًا مُشابهًا من الناس حول كتاباته. كان هُناك شيء مميز يكمن في عدم شعوره

(٢٣) هيتش ٢٢: كتاب مُذكّرات كتبه كريستوفر هيتشنز ونُشر عام ٢٠١٠ - المُترجم

بالخوف نهائيًا، في التوربينات[٢٤] العظيمة التي تتحرك داخل عقله، في لمسته الفوضوية التي لا يُمكن التنبؤ بها والتي أثّرت بطريقة كبيرة في الشُبّان الذين تراوحت أعمارهم بين العشرينات وأوائل الثلاثينات، بالطريقة نفسها التي أثر فيها (هانتر س. طومسون[٢٥]) على الجيل الذي سبقهم.

سألني الشاب (إميل) عن ما إذا كانت هُناك خُطط لتنظيم مراسِم تذكارية لهيتشنز، وأخبرته بأن هناك حدثاً سيتمّ في نيويورك في العشرين من شهر أبريل بوصفه تاريخًا متوّقعًا، وبالفعل قد تمّ في ذات التاريخ إقامة مراسِم في القاعة الكُبرى في نقابة كوبر للعلوم والفنون في مانهاتن بولاية نيويورك.

هناك، قام زُملائي (إيمي بيل) و(سارة ماركس) من مجلة (ڤانيتي فير) التي كان كريستوفر قد عمل فيها محرّرًا لفترة طويلة، بتنظيم قراءات كانت كلها من أعمال كريستوفر الخاصّة، أردنا أن نُنتج حدثًا تذكاريًّا دافئًا ومليئًا بالحُب، لكن ليس بطريقة عاطفية أو عدوانية مُبالغ فيها، قد أوفت الحروف والكلمات الإنجليزية بما أثلج صدورنا نحن وأرملة هيشتنز (كارول) وأبناؤه الثلاثة.

كان من ضمن الذين تحدّثوا وتواجدوا هُناك أيضًا كلّ من مارتن آميس، توم ستوبارد، سلمان رشدي، إيان ماكيوان وجيمس فنتون. هذا وقد حضر محررون آخرون مثل آنا وينتور، ديفيد رينيك، جيم كيلي وريك ستينجيل، وكذلك حضر شقيق كريستوفر (بيتر) وكلّ من أندرو سوليفان، كريستوفر باكلي، الزوجان أندرو وليزلي كوكبرن، وابنتهما الممثلة الجميلة أوليفيا وايلد

(٢٤) التوربينات: أجزاء دوّارة داخل المكائن، تُعرف عربيًا بالعنفات - المُترجم

(٢٥) هانتر ستوكتون طومسون: صحفي وكاتب أمريكيّ، اشتهر عالميًا بروايته «ملائكة الجحيم» - المُترجم

وشقيق أنـدرو (پاتريـك)، حـضر أيضًا نائـب وزير الدفـاع السـابق (بول وولفويتز) مُمثلًا عن إدارة جورج بوش، وهو من الذين تبّقوا مِن مَن عرفهم كريستوفر في الفترة التي سبقت الحرب على العراق. أيضًا حضر (شون بين) نيابـة عن هوليـوود في الحفل، كما أذكر أنني شـعرت بسـعادة غامرة لرؤيتي السيد هيرش حاضرًا للحدث هو الآخر.

بعـد أن انتهت المراسِـم التذكارية، ذهب المشـاركون إلى فندق (ويفرلي إن) القريب. هناك شربوا ودخّنوا تحت أشعة الشمس وتبادلوا ذكرياتهم عن كريسـتوفر؛ على الرُغم من أنّ ذلك اليوم قـد غلب عليه طابع الحزن، إلا أنه لم يخلُ من وقت جيّد استمر من بعد الظُهر وحتى منتصف الليل؛ حيث كان هُناك عشرات المُستذكرين.

بالنسـبة إلى أولئك الذين كانوا هناك، كانت تلك المراسِم، كما اعتدنا أن نقول في الستينيات: حدثًا ويومًا لن ننساه بسهولة.

في الواقـع، كان كريسـتوفر أحد الشـخصيات الفريدة مـن نوعها، كان ذكيًا، ساحرًا، مُثيرًا للمشاكل وصديقًا عزيزًا ومخلصًا، لقد كان رجلاً يمتلك شـهية لا تتوقف تجاه السـجائر، الصمت، الصُحبة، الكتابـة العظيمة، وقبل كل شيء مُتعطشًـا للحوار والمحادثة. كُلّ هذه الصفات تعاونت لإنتاج هذه المُعجـزة التي تمثّلت بهيأة رجل. سـتُجهد كثيرًا في أثنـاء محاولتك العثور على كاتـب يمكنه أن يتطابق مع غزارة الأعمدة والمقـالات والكتب الرائعة التي أنتجها على مدار العقود الأربعة الماضية.

لقد كان هيتشنز عادةً يكتُب بسرعة، كان يكتب مقالاته دُفعة واحدة في أغلـب الأحيان ولم يكُن يهتمّ لإعداد مسـوّدة أو قـراءة تصحيحية حتى؛ رُبما كان يعرف في قرارة نفسـه أنه لا يمتلك وقتًـا طويلًا في مسرح الحياة، بحيث

كان يُسابق الزمن لتضمين أكبر قدر مُمكن من أعماله.

أستطيع استذكار غداء حصل عام ١٩٩١، حينها كُنت مُحررًا لصحيفة (New York Observer). التقيتُ به هو و(إيمي) معًا من أجل الحصول على وجبة سريعة في مطعم ماديسون، شرِب هيتشنز قدحًا من الويسكي الاسكتلنديّ قبل الوجبة، بضع كؤوس من النبيذ في أثناء تناول الطعام، ثمّ بعض الكؤوس من الكونياك ما إن أنهى غداءه، ثمّ تمشّى باضطراب إلى المكتب، جهّزنا له طاولة متهالكة وآلة كتابة قديمة من ماركة (اوليڤيتي)، وبسيمفونيّة مُتناغمة أنتج لنا مقالًا يتكوّن من ١٠٠٠ كلمة، مقالاً شبه مثاليّ في أقلّ من نصف ساعة.

كان كريستوفر أحد أوائل الكُتّاب الذين اتصلت بهم عندما بدأت العمل لدى مجلة (ڤانيتي فير) عام ١٩٩٢. كُنت قبلها بست سنوات قد طلبت منه أن يكتب لصالح مجلّة (سپاي) فرفض بطريقة مؤدبة؛ لكنه قبِل العرض الذي قدمته لصالح (ڤانيتي فير)، وأصبح منذ ذلك الحين كاتبًا لعمودٍ ثابت في المجلة.

لم يكُن هناك موضوع مُهم أو غير مُهم بالنسبة إلى هيتشنز، حيث إنه في أثناء العقدين الماضيين قام بالسفر إلى كلّ بُقعة ساخنة تخطر على بال أحد، كما أنه عرّض نفسه لكل أشكال الإذلال والإزعاج بسبب العمود الذي يكتبه. ذات مرّة أرسلته في مُهمة تخرق القوانين التي لا تزال منصوصة في مدينة نيويورك والتي كان أحدها يمنع ركوب الشخص درّاجة هوائية من دون أن يضع قدميه على الدوّاسات، كانت الصورة التي نُشرت مع العمود يظهر فيها هيتشنز يُبحر في الهواء على درّاجة صغيرة في سنترال بارك رافعًا فيها قدميه في الهواء، كانت تبدو وكأنها صورةٌ من سيرك موسكو.

بناءً على اقتراح توم هادلي -مساعد قديم لهارولد هايز- كلّفت هيتشنز بقضية تحقيقية ذات مرّة، في أثنائها كان سيخضع لعلاجات مُتعددة لتبييض أسنانه ومعالجتها، وأيضًا لأغراض تتعلّق بما سيكتبه، كان عليه أن يذهب إلى صالون إزالة شعر بالشمع يتمتع بسمعة منتشرة في المدينة لما يُقدمه من خدمات، عانى لثوانٍ معدودة وهو يحاول أن يستوعب ما أريده أن يفعله، ثم ابتسم وقال: «لا بأس، لأجل المكسب...».

كان كريستوفر عاشقًا مثاليًّا للمُثقّف العام الذي يستعمل تفكيره النقديّ بكثرة، يَشعر الشخص وهو يقرأ لهيتشنز بأنه قد كتبه شخصيًا لهُ؛ ونتيجة لذلك شعر كثير من القرّاء بأنهم يعرفونه حقّ المعرفة. كان المشي معه في شوارع نيويورك أو عبر ممشى الطائرة، يجعلك تشعر كأنّك تشقّ الحشود برفقة نجمٍ سينمائيّ. لم يكن كريستوفر شُجاعًا في مواجهة المرض الذي سلبه حياته فحسب؛ بل كان شُجاعًا في كلماته وتفكيره، لم يكُن يُمانع أن ينسلّ خارج الشرنقة الليبرالية التقليدية، وموقفه المؤيّد للحرب على العراق ما هو إلّا مُجرّد مثال واحد. نأى الأصدقاء بأنفسهم عنه في تلك الأيام الظلماء، لكنّه لم يتخلَّ عن بنادقه. بعد هجومه المشهور عام ١٩٩٥ على الأم تيريزا، جاءني أحد المحررين الذين يكتبون في المجلة نفسها، وكان مُتديّنا من الكاثوليك إلى المكتب وقال بصوت يملؤه الغضب: إنه يُريد إلغاء اشتراكه بالمجلة. أجبته بأنه لا يُمكن إلغاء اشتراكه، فهو يحصل على المجلة مجانًا من الأساس.

لا أعرف كيف يُمكنني وصف المكلومين على رحيل هيتشنز، من المُثقفين من الناس والأصدقاء المُقربين له، حيث لا يقتصر الأمر على الذين حضروا المراسِم التذكارية. كانت لدى كريستوفر مسيرة مهنية يُحسد عليها، حيث بدأتْ مع صحيفة (New Statesman) في بريطانيا،

ثـمّ شـق طريقه باتجاه أمريكا، حيـث كتب للكل هُناك، حتى إنه شـارك في تقييمات نيويورك تايمز للكتب.

كان أُسـطورة في دائرة المُتحدثين وبإمكانه أن يُناقش أيّ شـخصٍ حول أيّ موضـوع. حصـل أيضًا على عدد لا يُحصى من الجوائز وكتب كُتبًا صُنّفت مـن ضمن الأكثـر مبيعًا، من ضمنهـا مذكراته (هيتـش ٢٢) والتي وضعتْ بعـض المال في جيب عائلته أخيرًا. في الأسـابيع الأخيرة مـن حياته، أخبروه بأن كويكبًا ما سـوف يتمّ تسـميته على اسـمه، فرِح بتلك الفكرة، كان الأمر مُشرّفًا بالنسبة إليه.

بالنسبة إلى أصدقائه، سيبقى كريستوفر في ذاكرتهم لِما يتمتّع به من روح الدعابة وذاكرة مُذهلة في كلّ الظروف. وبالنسـبة إلينا نحن، قرّاء هيتشـنز.. سنتذكّر الكلمات التي تركها وراءه.

يونيو ٢٠١٢

مدينة نيويورك

كان زوجي رجلًا استثنائيًا

كارول بلو

في مسرح الحياة، كان زوجي رجلًا استثنائيًا.

إذا رأيتـه من قبل وهو يتكلّم، رُبما قد لا تتفق مع تقييم ريتشـارد دوكنز بأنـه "أعظم خطيبٍ في عصرنا"؛ لكنك سـتفهم مقصـدي، أو على الأقل لن تعتقد أنني أنحاز له فقط لأنني زوجته.

بعيدًا عن الأنظار، كان زوجي استثنائيًا بالفعل.

في المنزل في أثناء حفلات العشاء المُبهجة والمُرتجلة التي غالبًا ما كُنا نحن من يستضيفها، عندما كانت الطاولة تكتظ بالضيوف من السُفراء، الكتّاب الصحفيين، السياسـيين المنشقّين، طلاب الجامعات والأطفال الذين تتزاحم أياديهم حيث كان من الصعب إيجاد مساحة لوضع كأس من النبيذ علي الطاولة، كان زوجي يقف ليُعطي نخبًا قد يستمر لعشرين دقيقة من الإثارة،

السـحر، الضحك الهستيري، إلقاء قصائد الشـعر وحتى الدعوة إلى مُناصرة قضية ما. كان يقول بصوته الشجيّ: "كم هو رائع أن نكون نحن."

زوجي كان استثنائيًا.

مع ذلك، عليّ الآن أن اتقمّص دوره. أُجبرت على كتابة الكلمة الختامية.

في مسـاء صيفـي بمدينـة نيويـورك عندما كـان كلّ ما يمكنـك التفكير فيـه هو العيـش، كان التاريـخ ٨ يونيو من عـام ٢٠١٠، أول يـوم من جولة الكتاب الخاصّة به في أمريكا، ركضت بأسرع ما يُمكنني في الشـارع لتغمرني السـعادة وأنـا أراه يرتدي بذلة بيضـاء. كان لامعًا مُتلألئـًا.. وكان يموت في الوقـت نفسـه، على الرُغم من أننـا لم نكن نعرف ذلك بعـد، ولن نعرف على وجه التأكيد حتى أتى يوم وفاته.

في وقتٍ سـابق من ذلك اليوم، اضطُر للذهاب إلى المُستشفى مُعتقدًا أنه أُصيب بنوبة قلبية، في الوقت الذي رأيته يقف عند مدخل المسرح في الشارع ذلـك المسـاء عرفنا نحن وحدنا بأنه قد يكون مُصابـًا بالسرطان، اعتنقنا ظلًا رأيناه نحن فقط واخترنا أن نخوض التحدي ضدّه. كُنا مُبتهجين. رفعني إلى الأعلى وضحكنا معاً.

دخلنـا إلى المـسرح، حيـث كان يكتـظ بالجمهور مـن جديـد، تمكنّا من الحصـول على عشـاء مُبهج على شرفه وانطلقنا في نُزهـة معًا إلى فندقنا في ليل مانهاتن المثاليّ، عبرنا أكثر من خمسـين مُربعًا سـكنيًا، كـان كلّ شيء يجري كما ينبغـي، لكنـه لم يكن يجري بمثالية، فنحن الآن نعيش في عالمين، عالمنا القديم الـذي لم يبـدُ أجمل من ذي قبل، لم يختفِ بعد، وعـالمٌ جديد لم نكن نعرف عنه شيئًا غير شعور الخوف منه.

دام هـذا العـالم الجديـد تسـعة عشر شـهرًا. في أثنـاء هذا الوقـت الذي

سـمّاه «العيش بمـوت»، أصرّ فيه على العيش، وكان مبدأه الأسـاسي، المادي والفلسفي، هو فعل كلّ ما في وسعه للبقاء على قيد الحياة.

كان كريسـتوفر يأمل أن يكون من النسـبة التي تكون قابلة للشفاء، بين ٥ إلى ٢٠ بالمئة كما أخبرنا الطبيب الذي تحدّثنا إليه. لم يكن يكذب على نفسـه بشـأن حالتـه الصحية، ولم يكن يسـمح لي أبـدًا بالإسراف في أحـلام اليقظة حول نسـبة نجاته، كان يستجيب لكل الأخبار الجيدة والإحصائيات المُقدّمة إليه بنوعٍ من الأمل الطفوليّ، كان يرغب بالبقاء، بالاسـتمرار في انخراطه في الطبيعة، كان ذلك أمرًا دراماتيكيًا.

كـان يوم عيد الشُـكر هـو عطلته المُفضّلـة، كنُت أراقبه وهو يُسـاعد في التنظيم وأشـعر بالرهبة، كان يُسـاعد حتى عندما كـان مُتعبًا من آثار العلاج الكيميائـي. في أثناء تجمّع عائليّ كبير في تورونتـو بوجود جميع أبنائه ووالدي عشيّة المُناظرة المُهمة مع توني بلير حول الدين، رتّب ذلك الحدث ثم أخبرني ليلتهـا ونحـن في جنـاح الفُندق، بأن هذا سـيكون على الأرجح عيد الشـكر الأخير له.

قبـل فـترة وجيـزة، عندما كُنّـا في واشـنطُن، في أثناء ظهيرة يـوم صيفيّ مُشرقٍ وهادئ، قام بدعـوة عائلته وأصدقائه بحـماس لنُزهة لزيارة معرض أُصول الإنسـان في متحـف التاريخ الطبيعيّ، هُناك شـاهدته يُسرع خارجًا مـن سـيارة الأجرة ليخطـو خطوات مُتثاقلة عـلى أرضية الجرانيـت ليتقيأ في سـهلة المُهملات قبل أن يقود الرحلة داخل المعرض ويحدّثنا ويُدهشنا حول إنجازات الإنسان العلمية والمنطقية.

لم يخسر كريسـتوفر الكاريزما الشـخصية أبدًا، لا في الأماكن العامة ولا في الجلسـات الخاصّة ولا حتى في المُستشـفى. أقام عالمه هُنـاك وحوّل غرفته

العقيمة والباردة والمُضاءة بالنيون الذي يُطنطن ويومض بتكرار، إلى غُرفة دراسة ومعيشة.

لم تمنعه المُنغّصات المستمرة من وخزٍ وأخذ عيّنات وعلاجات تنفّس وأكياس المحلول الملحي التي يتم تغييرها، من الظهور بحكمته المعهودة، كان يُثير نقاطًا جدليّة ومناقشات من أجل «ضيوفه»، استمع لنا ولفت انتباهنا وجعلنا نضحك طوال الوقت، كان يسأل عن الصحف، ويعلّق على ما يُنشر في صحف ومجلّات أُخرى، روايات أخرى ومُراجعات أُخرى، وقفنا نحن حول سريره واتكأنا على الكراسي البلاستيكية المُنجّدة وجعلنا نُشارك في أحاديثه الفلسفية.

ذات ليلة، كان يسعل دمًا وتمّ نقله إلى وحدة العناية المُركزة لإجراء تنظير مُستعجل للقصبات، بقيت أنا بين مُراقبته والنوم على الكرسي الذي يُمكن تحويله لأريكة، استلقينا بجوار بعضنا بعضاً على أسرّتنا المُنفصلة غفونا واستيقظنا ونحن في حيرة من أمرنا، مثل أطفال يقضون ليلة عند أصدقائهم، كان ذلك الوقت، هو أفضل وقتٍ بإمكاننا الحصول عليه.

عندما أخبره الطبيب بأن المُشكلة في قصباته الهوائية لم تكن سرطانًا بل التهابًا رئويًّا، كان لا يزال يملك الأنبوب البلاستيكي الذي يدخل من فمه إلى قصبته الهوائية، لكن في الوقت نفسه يكتب المُلاحظات ويطرح الأسئلة حول كلّ ما يدور حوله، لا زلت احتفظ بالورقة التي كتب فيها جانبه من المُحادثة، هناك رسم لصورة أعلى الصفحة رسمها بنفسه، ثم تحتوي باقي الصفحة على كلماته:

التهاب رئوي؟ من أيّ نوع؟

هل جسدي خالٍ من السرطان؟

من الصعب تذكّر الألم الآن، كان على مستوى ٤ أو ٥ من ١٠

كيف حال إدوين؟ أخبريه بأنني سألت عنه

أنا قلق بشأنه

لأنني أُحبّه

أريد أن أسمع صوته

ثم كتب في الصفحة ما أراد مني إحضاره من دار الضيافة الخاص بنا في هيوستن:

كُتب نيتشـه ومينكين وتشيسترتون. بالإضافة إلى كلّ قصاصات الورق العشـوائية... التي قد تكون في حقيبته أو في أحد الأدراج أو بجانب السرير وغيرها من الأماكن.

في تلـك الليلـة، وصل صديـق عزيز من نيويـورك عندهـا زادت طاقة كريسـتوفر وابتسـم ابتسـامة مفتوحة وواسـعة حول الأنبوب الذي لا يزال يمتد في حلقه وحنجرته وكتب لنا:

أنـا باقٍ هُنا [في هيوسـتن] حتـى يتمّ شـفائي، بعدها سـآخذ العائلة في إجازة إلى برمودا.

صبـاح اليـوم اللاحـق، بعد أن أخرجـوا الأنبـوب، دخلـت إلى غُرفته لأجده يبتسم لي ابتسامة تشبه ابتسامة الثعالب.

صاح «ذكرى زواجٍ سعيد!»

فدخلـت مُمرّضة مـع كعكة بيضاء صغـيرة، وصحون ورقية مع شـوك بلاستيكية...

في ذكـرى زواجٍ أُخرى كُنا نقـرأ الصحيفة، ونحن واقفان على الشُرفة في

جناحنـا في الفندق بنيويورك. يـومٌ خالٍ من العيوب. ابنتنـا البالغة من العُمر عامين تجلس بتمام الرضا بجانبنا، تشرب زجاجتها، تنزلق من كُرسيها وتنزل على الأرض لتتفحص شـيئًا، تسحب الزُجاجة من فمها وتُناديني وهي تُشير إلى نحلة كبيرة غير مُتحرّكة، تشعر بالذُعر وتنفض رأسهًا يمينًا ويسارًا، كأنها تصرخ «لا، لا، لا!» «لقد توقفت النحلة» ثُم تصدر أمرًا «اجعلوها تتحرك.»

كانت حينها تظنّ بأنني أمتلك القُدرة على إحياء الموتى، لا أستطيع تذكّر مـا قُلته لها عن النحلة، ما أتذكره هو عبارة "اجعلوها تتحرك"، حينها رفعها كريستوفر إلى حضنه وقام بمواساتها وغيّر الموضوع فورًا بتحويله إلى فُكاهة، تمامًا كما كان سيفعل مع كل أطفاله، بعد سنواتٍ كثيرة، عندما يجتاحه المرض.

أفتقد صوته المثاليّ. كُنت أسمعه ليل نهار، ليلًا ونهارًا. أفتقد أول لحظاته السـعيدة عندما يسـتيقظ، الحروف الموسيقية التي تخرج من صوته الصباحي، عندما يقرأ لي مُقتطفات من الصحيفة التي تصب جام غضبها عليه أو تسـخر منـه، أصـوات موسـيقى الجاز التي تسـبق حديثـه إلى محطة راديـو من هاتف المطبـخ في أثناء طهـوه للغداء، تحيّته لابنتنا بصوتٍ عالٍ عندما تعود إلى المنزل قادمة من المدرسة، وآخر أحاديثه الهادئة والمُثيرة للراحة عن خُطط التقاعد في وقتٍ متأخر من الليل.

أفتقـده، كما يجب على قرّائه أن يفعلوا، أفتقد صوته الظاهر من الكلمات، أفتقـد صوتـه المُنبثق من الصفحات. أفتقد هيتشـنز الذي لم يكـن موجودًا في منشوراته:

الملاحظـات التـي لا تُعد ولا تُحصى التي تركهـا لي في مدخل المنزل، على وسادتي، رسائل البريد الإلكتروني التي كان يُرسلها في أثناء جلوسنا في غرف مُختلفة من شُـقتنا أو من منزلنا في كاليفورنيا، والرسـائل الإلكترونية التي كان

يُرسلها إليّ عندما أكون في الطريق. أفتقد رسائله المكتوبة بخط يده هي وبطاقاته البريدية التي لا حصر لها وفاكساته التي كان يُرسلها، أفتقد الإثارة التي كنت أشعر بها عند تلقي رسائل كريستوفر فور وصوله إلى بُقعة خطرة في قارّة أُخرى.

في المرّة الأولى التي كتب فيها كريستوفر عن مرضه علنًا في مجلة (ڤانيتي فير)، كان مُتناقضًا بهذا الشأن، فهو كان يُريد حماية خصوصيّة عائلتنا ولم يكن يُريد للموضوع أن يظهر للعلن، أراد أن يكتب ويُفكّر بعيدًا عن المرض. لقد عقد اتفاقًا مع رئيس تحرير المجلّة، صديقه غرايدون كارتر، بأنه سيكتُب عن أيّ شيء باستثناء الرياضة، وقد أوفى بهذا الوعد.

قد يبدو أن كلماته الأخيرة بصورة تدوينات مُجزّأة في هذا الكتاب الصغير كأنها خاملة، لكن في الواقع إنها كُتبت على جهاز الكومبيوتر الخاص به في لحظات من الطاقة والحماس عندما كان يُقيم في المستشفى مُستخدمًا طاولة طعامه مكتبًا له.

عندما تمّ إدخاله إلى المُستشفى للمرّة الأخيرة، اعتقدنا كلنا أنها ستكون فترة قصيرة وأنه سيحظى بفرصة لكتابة كتابه الأطول الذي كان يتشكّل في ذهنه. كان علم الجينوم يُثير فضوله الفكريّ هو والعلاجات الإشعاعية المتطوّرة التي خضع لها، شجعه احتمال أن حالته قد تُساهم في الطفرات الطبيّة المُستقبلية. قال لصديق مُحرر كان ينتظر منه مقالًا: "آسف على تأخري، سأعود إلى المنزل قريبًا"، أخبرني حينها أنه لا يستطيع الصبر لمتابعة كلّ الأفلام التي فاتته رؤيتها ولحضور معرض الملك توت عنخ آمون في هيوستن، محلّ إقامتنا المؤقت.

كانت النهاية غير مُتوقّعة.

ففـي المنزل في واشـنطن، أسـحب مـن الكتـب الموجـودة في الرفوف، مـن أبـراج الكُتب الموجـودة عـلى الأرض، من أكـوام المُجلّـدات الموجودة عـلى الطاولات. داخـل الأغلفة الخلفية توجد مُلاحظـات مكتوبة بخطّ يده كتبهـا من أجـل المُراجعات ومن أجل نفسـه هو، توجد أكـوامٌ من الأوراق والمُلاحظات على مُختلف الأسطح في كل أرجاء المكان، باستطاعتي أن أطلّع على مكتبته وملاحظاته في أيّ وقت، يُمكنني إعادة اكتشافه واستعادته.

عندما أفعل ذلك، أسـتطيع سـماعه، أستطيع سـماع كلماته الأخيرة، مرّة بعد مرّة، الكلمة الأخيرة كانت لكريستوفر.

يونيو ٢٠١٢

واشنطُن العاصمة

عن الأعجوبة كريستوفر هيتشنز

سلمان رشدي

في الثامن من يونيو (حزيران) عام ٢٠١٠، كُنت في محاورة مع كريستوفر هيتشنز في نيويورك، في حدثٍ لإطلاق مذكراته (هيتش-٢٢). قدم كريستوفر عرضًا شجاعًا للغاية تلك الليلة، لم يكن أبدًا أكثر حدة، ولم يكن أكثر مرحًا، استمّر تألّقه بعد ذلك في عشاء احتفاليّ صغير. بعد بضعة أيام أخبرني أنه في صباح ذلك اليوم، تم إبلاغه بتشخيص إصابته بالسرطان. كان من الصعب تصديق أنه كان رائعًا بشكل علني في مثل ذلك اليوم المروع على الصعيد الشخصيّ بالنسبة إليه. لقد أظهر كثيراً من الرواقية، ألقى النكات والمُزح الذكية في وجه الموت.

كان (هيتش-٢٢) عنوانًا نشأ من ألعاب الكلمات المُضحكة التي لعبناها معًا، والتي كانت تتخلل بعض العناوين التي لم ترَ النور، من بينها «وداعًا للأسلحة»، «لِمن يدقّ الجرس من أجله»، «لقتل الطائر الطنان»، «السيد زيفاجو» و«توبي ديك»، المعروف أيضًا باسم «موبي كوك». وبعدّ

هذا الاسم يُمثّل النسخة غير الكاملة من تحفة جوزيف هيلر الكوميدية[٢٦]، أنقذ كريستوفر هذا العنوان الأخير (هيتش-٢٢) من كومة العناوين التي تداولناها شفهيًا وأعطاه قيمة عبر إطلاقه على الكتاب الذي يُعد الآن أفضل ذكرى له.

كان الضحك وهيتشنز رفيقين لا ينفصلان، كانت الكوميديا واحدة من أقوى الأسلحة في ترسانته. عندما كُنا في البرنامج المُسمّى «الوقت الحقيقي» الذي يُقدّمه مع بيل مار في عام ٢٠٠٩ جنبًا إلى جنب مع موس ديف، وبدأ مغني الراب في تقديم سلسلة من المناوشات المضطربة حول برنامج إيران النووي وأسامة بن لادن والقاعدة، كان كريستوفر مهذبًا بكل معنى الكلمة، في أثناء مخاطبته موسى، مزّق أفكاره، أطلق عليه لقبًا محترمًا زائفًا «السيد بالتأكيد»، اسم مضحك للغاية لدرجة أنه جعل المفاهيم التي كان السيد دي يحاول تقديمها مُضحكة أكثر فأكثر.

كان يختفي وراء الضحك ما أسماه صديقه إيان ماك إيوان «عقل الرولز-رويس» ، ذلك العضو ذو سعة الاطلاع غير المنطقية والإدراك اللامع في كثير من الأحيان، وإن كان مُتصدّعًا في أحيان أُخرى. كان دماغ هيتش عبارة عن آلة أنيقة تُصدر صوت الخرخرة ومزينة بتجهيزات أنيقة. لقد كان مثقفًا يتمتع بغرائز المُشاجرة في الشارع، لم يكن أبدًا أسعد مما كان عليه عندما كان ينخرط في مشاجرات وسجالات أخلاقية أو سياسية. عندما انخرطت في خلاف عام مع الروائي المرموق جون لو كاريه، قفز هيتشنز بلا دعوة إلى المُشاجرة ورفع من مستوى الإهانة إلى حد كبير، حيث قارن سيرة الرجل العظيم بـ«سلوك رجل، بعد أن أراح نفسه في قبّعته، أسرع وثبّتها بقوّة فوق

---

(٢٦) يقصد (الخدعة-٢٢) أو «catch-٢٢»: رواية تاريخية مكتوبة بطريقة الهُجاء - المُترجم

رأسه». أنا آسف لأن أقول: إن السِجالات أصبحت أقبح بعد تدخل هيتش.

حدث نزاع لو كاري في أثناء السنوات الطويلة من الجدل والخطر التي أعقبت نشر روايتي عام ١٩٨٨ (آيات شيطانية) والهجوم الذي حصل على مؤلفها وناشريها ومترجميها وبائعي الكتب من قبل أتباع وخلفاء طاغية إيران الديني، روح الله الخميني. في أثناء هذه السنوات، اقترب مني كريستوفر، وهو صديق جيّد ولكن ليس حميمًا منذ منتصف الثمانينيات، أصبح أكثر الحلفاء الذين لا يكلون وأكثر المدافعين عني بلاغة.

كثيرًا ما سُئلت عمّا إذا كان كريستوفر قد دافع عني؛ لأنه كان صديقي المقرب. الحقيقة، إنه أصبح صديقي المقرب؛ لأنه أراد الدفاع عني.

مشهد رجل الدين المُستبد بأفكار عتيقة ويُصدر مذكرة إعدام لكاتب يعيش في بلد آخر، ثم يُرسل فِرق الموت لتنفيذ فتواه، غيّرَ شيئًا ما في كريستوفر. لقد جعله يفهم أن خطرًا جديدًا قد وُجد على الأرض، وأن أيديولوجية شاملة جديدة قد دخلت في مكانة الشيوعية السوفييتية.

في أعين اليمين، كُنت «خائنًا» ثقافيًا، وعلى حد تعبير كريستوفر، «رجلًا مغرورًا» ، وفي رأي اليسار، لا يمكن أن يكون الشعب مخطئًا أبدًا، وقضية الشعب المضطهد، الفئة التي وقع فيها المعارضون الإسلاميون لروايتي كانت مبررة بشكل مضاعف. أصوات متنوعة مثل البابا ورئيس أساقفة نيويورك والحاخام الأكبر البريطاني جون بيرغر وجيمي كارتر وجيرمين جرير «فهموا الإهانة» وفشلوا في إظهار الغضب، وذهب كريستوفر إلى الحرب.

وجدنا أنفسنا وهو يصف أفكارنا، من دون منح، بعبارات متطابقة تقريبًا. بدأت أفهم أنه على الرغم من أنني لم أختر المعركة، فقد كانت على الأقل هي المعركة الصحيحة؛ لأن كل ما أحببته وأقدره (الأدب، الحرية،

عـدم الاحـترام، الحرية، عدم الدين ، الحرية) كان يتعارض مع كل ما أبغضه (التعصب)، والعنف، والتزمّت الأعمى، وافتقار روح الدعابة، والفلسـفة، والثقافة الإجرامية الجديدة في ذلك العصر). ثم قرأت كريسـتوفر مسـتعملاً المجاز نفسه في كل شيء هو أيضًا رأى أن الهجوم على (آيات شيطانية) لم يكن حدثًا فريـدًا حيث تم اتهام الكتاب والصحفيين والفنانين في كل أنحاء العالم الإسلامي بارتكاب الجرائم نفسها - التجديف والبدعة والردة وشركائهم في العصر الحديث، «الإهانة». وأدرك أنه بعيدٌ عن هذا الاعتداء الفكري يكمن احتـمال شـن هجوم على جبهة أوسـع. اقتبس لي من هاينـرش هاينه: «حيث يحرقـون الكتـب، يحرقـون الناس بعـد ذلك». (وذكـرني بإحساسـه العميق بالسـخرية أن عبـارة هاينـه في مسرحيته قد أشـارت إلى حـرق القرآن). وفي ١١ سـبتمبر ٢٠٠١، أدرك هو وكلنا أن ما بدأ مع كتاب يحترق في برادفورد، يوركشـاير، قد انفجر الآن في وعي العالم بأسره في شكل تلك المباني المحترقة بشكل مأساوي.

في أثنـاء الحملـة ضـد الفتـوى، ضغطت الحكومـة البريطانيـة ومختلف مجموعـات حقـوق الإنسـان عـلى القضية من أجـل زيارة قمت بهـا إلى بيت كلينتون الأبيض، لإظهار قوة دعم الإدارة الجديدة للقضية. عُرضت زيارة، ثم تم تأجيلها، ثم عرضت مرة أخرى. لم يكن واضحًا حتى اللحظة الأخيرة ما إذا كان الرئيس كلينتون نفسه سيقابلني، أو إذا كان اللقاء سيُترك لمستشار الأمـن القومـي أنتـوني ليك وربما وزيـر الخارجيـة وارين كريسـتوفر. عمل هيتش بلا كلل لإقناع شـعب كلينتـون بأهمية تحية رئيـس الولايات المتحدة لي شـخصيًا. رُبـما كانـت صداقتـه مع جـورج سـتيفانوبولوس هـي العامل الحاسم. سادت حجج ستيفانوبولوس وقادتني إلى الحضور الرئاسي. اتصل ستيفانوبولوس بكريستوفر على الفور، وأخبره منتصرًا، «لقد هبط النسر».

(في تلك الزيارة إلى واشنطُن العاصمة، مكثت في شقة هيتشنز، وبعد ذلك تم تحذيره من وزارة الخارجية من أن كوني ضيفًا في منزله ربما يكون قد وجه الخطر إليه؛ ربما ستكون فكرة جيدة إذا انتقل إلى منزل جديد؟ لقد ظل غير متأثرٍ وواجه الأمر بازدراء.)

توصّل كريستوفر إلى الاعتقاد بأن الأشخاص الذين فهموا المخاطر التي يشكلها الإسلام الراديكالي كانوا على الجانب الأيمن وأن رفاقه السابقين على اليسار كانوا يرتبون مع بعضهم بعضاً لتفويت ما بدا له بوصفه نقطة واضحة جدًا، وهكذا، لم يُبقِ على الأمر في المُنتصف، فقد فعل ما بدا لكثير من الناس مثل انعطاف على الطريق السياسي السريع للانضمام إلى صانعي الحرب في إدارة جورج دبليو بوش. أصبح مغرمًا بشكل غريب ببول وولفويتز. في إحدى الليالي كنت في شقته في العاصمة عندما توقف وولفويتز، الذي كان قد غادر لتوه من الإدارة، لتناول مشروب في وقت متأخر من الليل وشرع في تقديم نقد لحرب العراق (خطأ رامسفيلد، على ما يبدو) والذي تركني، على الأقل، عاجزًا عن الكلام. تساءلت إلى متى سيستطيع كريستوفر تحمل مثل هؤلاء الرفقاء.

ومن المفارقات أن الله هو الذي أنقذ كريستوفر هيتشنز من اليمين. لا يمكن لأي شخص يكره الله بشكل عميق وذكيّ وأصليّ وهزليّ مثل هيتشنز أن يظل في جيب المحافظة الأمريكية. عندما كشف أنيابه وحمل الكتاب الناتج، الله ليس عظيمًا، هيتش حلّق بعيدًا عن اليمين الأمريكي وعاد نحو طبيعته الليبرالية. يا لها من دائرة شريرة. لقد أصبح شخصية محبوبة بشكل غير عادي في سنواته الأخيرة، وكانت حربه الرائعة على الله، ومن ثم مقاومته الرائعة مع عدوه الأخير، الموت، هي التي أعادته أخيرًا إلى الوطن من الحرب الخاطئة في العراق.

عندما أكملت مسودة مذكراتي، أرسلت نسخة إلى كريستوفر الذي كان في ذلك الوقت مريضًا جدًا. لم أكن أتوقع منه أن يُقدّم أكثر من مجرد إلقاء نظرة عليه. بدلاً من ذلك، تلقيت بريدًا إلكترونيًا طويلاً يحتوي على نقد كاملٍ للنص، يشير إلى أخطاء في الحقائق والاقتباس الذي كتبته عن روبرت بروك وبي جي وودهاوس.

كان هناك عشاء أخير في نيويورك، حيث شرعنا أنا والشاعر جيمس فينتون، بموجب اتفاق سابق، في جعله يضحك قدر الإمكان. ومما يبعث على الأسى أن هذا تسبب، مرة واحدة على الأقل، في نوبة سعال مرعبة. لكنه استمتع في ذلك المساء. كانت الهدية الوحيدة التي يمكن أن يقدمها أصدقاؤه له قرب النهاية: ساعة أو ساعتين من أن يكون على طبيعته كما كان يتمنى دائمًا أن يكون ، عقبة قوية وواسعة بين من أحبهم ، وليس عقبة متناقصة تتقلص ببطء. منه بمهلك الأيام.



في عيـد ميـلاده الثاني والسـتين - عيد ميـلاده الأخير، يا لهـا من عبارة مؤلمـة - كُنـت معه وكـارول ورفاق آخريـن في منزل صديقه مايـكل زيلخا في هيوسـتن، وقد تـم تصويرنا ونحن نقـف على جانبي تمثـال لفولتير. هذه الصـورة هي الآن واحدة من أغلى ممتلكـاتي.. أنا وفولتيرين اثنين، واحدٌ من الحجر والآخر لا يزال على قيد الحياة. لقد رحل كلاهما الآن، ولا يسـع المرء إلا أن يحـاول الاعتقـاد، كما أصر الفيلسـوف بانجلوس عـلى كانديد في تحفة فولتير الأكبر، أن كلّ ما يحدث هو لمصلحة الجميع. لا أشـعر أن ما حدث له كان لمصلحة الجميع.

٦ يناير ٢٠١٢[٢٧]

---

(٢٧) تاريخ المقال لا الصورة - المُترجم



هيتش

سام هاريس

في اللحظة التي أُعلن فيها أن كريستوفر هيتشنز مريض بالسرطان، بدأت عبارات التأبين تتسرب إلى المطابع والمنصّات. لم يرغب أحد في إنكار إمكانية تعافيه بالطبع، لكن لم نتمكن أيضًا من ترك الإعجاب الذي شعرنا به تجاهه من دون أن نُعبّر عنه. إنه لتعبير مُبتذل أن نقول: إنه فريد من نوعه ولا أحد يستطيع أن يملأ مكانه. لكن هيتش لم يكن مثل أي أحد. في حالته، حتى أكثر العبارات رنينًا تبدو جوفاء أمامه. ببساطة لم يكن هناك أحد مثله.

كانت إحدى مباهج العيش في عالم مليء بالغباء والنفاق هي رؤية هيتش يستجيب. هذه مُتعة حُرمنا منها الآن. لا تزال المشاكل التي لفتت انتباهه قائمة، وكذلك سِجل تألقه وشجاعته وسعة الاطلاع وروح الدعابة في مواجهة الغضب. لكن غيابه سيترك فراغًا هائلاً في السنوات القادمة. عاش هيتش حياة كبيرة بشكل غير عادي. (اقرأ مذكراته، هيتش-٢٢) لقد كانت حياته قصيرة جدًا، بالتأكيد يمكن للمرء فقط أن يتخيل ما كان يمكن

أن يخـرج منه في عقدين آخرين، لكن هيتـش أنتج المزيد من الأعمال الرائعة، قرأ المزيد من الكتب، والتقى أشـخاصاً أكثر إثارة للاهتمام، وكسـب حججًا أكثر مما استطاع معظمنا في عدة قرون.

قابلـت هيتش لأول مـرة في عشـاء في نهاية أبريـل ٢٠٠٧، قبل إطلاق كتابه الرائع (الله ليس عظيمًا). بعد أمسـية طويلة، تركته أنا وزوجتي واقفين عـلى الرصيف أمام فندقه. كانت جولـة كتابه قد بدأت للتو، وكان من المقرر أن يناقشـه في حلقـة نقاشـية في صباح اليـوم اللاحق. كان الوقـت قد تجاوز منتصـف الليل بفترة طويلة، ولكن كان من الواضح من سـلوكه أن سـاعته بقيـت في ضمن سـاعات العمـل. كُنت قد سـمعت قصصًا عـن قدرته على حرق الشـمعة من كلا الطرفـين، لكنني كنت اترنّح جنبًـا إلى جنب في وهج مصباح الشـارع، قمـت بتدوين ملاحظة ذهنيـة لما أذهلني بعـدّه حقيقة من حقائق الطبيعة - تأكدت أن نقاش الغد سيكون كارثة.

اسـتيقظت في السرير صباح اليوم اللاحق، وشعرت بالإحباط الشديد وأنا أرى هيشـت مُسـيطرًا على بث قناة سي سـبان، مرتديًا البدلة نفسها التي كـان يرتديهـا في الليلة السـابقة. وغني عن القول إنه كـان واضحًا وذكيًا من دون عناء. يجب أن يكون هناك اسـم لمزيج المشـاعر الغريب الذي استمتعت به بعد ذلك: جزء من الدهشـة، وجزء من الراحة، وجزءان من الحسـد. لن تكون هذه هي المرة الأخيرة التي شربت فيها على شرفه.

منـذ العشـاء الأول، شـعرت بأنني محظوظ جـدًا؛ لأنني أعـدّ «هيتش» صديقًـا وزميلًا - ومن المؤسـف حقًا أنني لم أقابله مؤخـرًا. قبل أن يمرض، كنت أتوقع أن نُمضي سنوات عدّة؛ لأعدّ شراكته أمرًا مفروغًا منه. لكن آخر اجتماع لنا كان في فبراير من هذا العام، في لوس أنجلِس، حيث شاركنا المنصة مـع اثنين مـن الحاخامات. كان مرضـه خطيراً في تلـك المرحلة بحيث جعل موضوع نقاشـنا «هل هُناك حياة بعد الموت؟». كما جعل السـفر صعبًا عليه.

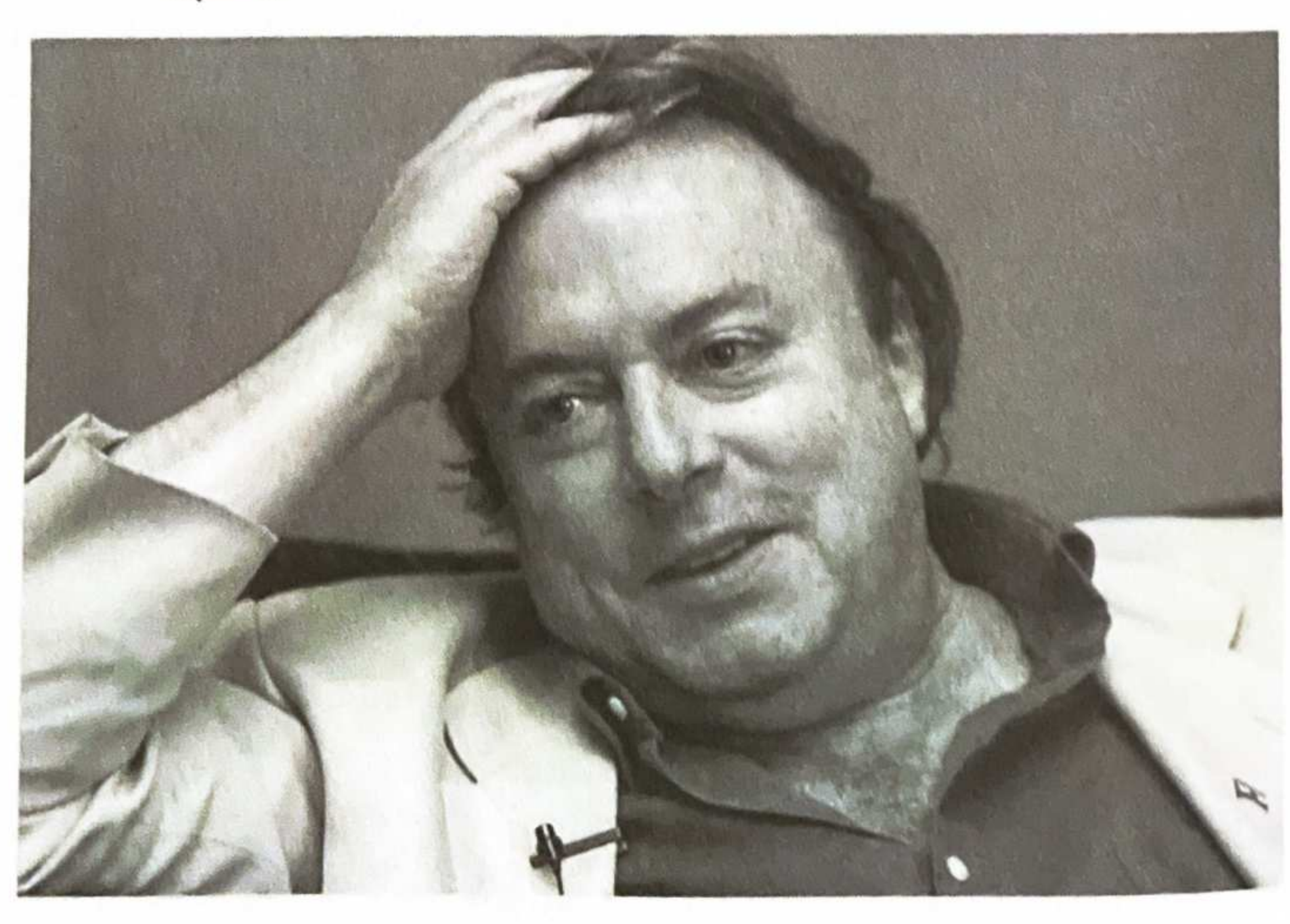
اندهشت؛ لأنه قام بالرحلة على الإطلاق.

في المساء الذي سبق الحدث، التقينا لتناول العشاء، أدركت أنها قد تكون آخر وجبة لنا معًا. لقد أذهلني أيضًا أنني أدركت أنها كانت وجبتنا الأولى بمفردنا. أتذكر أنني كنت أفكر في مدى العار - بالنسبة إليّ - أن حياتنا لم تتطابق بشكل أفضل. كان لدي كثير لأتعلمه منه.

لقد تشرفت بمشاهدة الامتنان الذي يشعر به كثير من الناس أمام حياة هيتش وأعماله - أينما اكون، ألتقي بمعجبيه. في جولتي الكتابية الأخيرة، لم يستطع أولئك الذين حضروا محاضراتي أن يخففوا من سعادتهم بمجرد ذكر اسمه. وكثير منهم جاءوا ليوقعوا كتبهم في المقام الأول ليطلبوا مني أن أنقل له أطيب تمنياتهم. كان من الرائع أن أرى مدى الحب والإعجاب الذي يحظى به. وكوني قادرًا على مشاركة هذا معه قبل النهاية.

سأفتقدك يا أخي.

١٨ ديسمبر، ٢٠١١





شذرات

* «يملـك الجميع كتابًا يقبع في مُخيّلتهـم، لكن في مُعظم الأحيان، يجب أن يبقى في مكانه».
* «إنّ جوهر العقل المُستقلّ لا يكمن بما يُفكر فيه، بل بالطريقة التي يُفكّر بها».
* «تتطلّب الادعاءات الاستثنائية، أدلّة استثنائية».
* «ما يُمكن إثباته من دون دليل، يُمكن نقضه من دون دليل كذلك».
* «كم هو محزن رؤية الأمريكيين الحاليين يتوقون إلى العقيدة التي تأسست بلادهم للفرار منها».
* «أصبحت صحفيًا؛ لأنني لم أرد الاعتماد على الصحف بوصفها مصدراً للمعلومات».
* «لا تقف مُتفرجًا إزاء الظُلم والغباء، سيوفّر القبر لك كثيراً من الوقت الكافي للصمت».
* «إنّ دفاع الناس عن أنفسهم أمام تُهم لم توجّه إليهم من الأساس، لهو

إشارة سيئة غالبًا».

* «تبدأ الفلسفة حيث ينتهي الدين، تمامًا كما تبدأ الكيمياء حيث تنفد الخيمياء، ويحلّ علم الفلك مكان التنجيم».

* «لا يُمكن حصول أيّ تقدّم من دون وجود مُواجهة مُباشرة».

* «نحن نعيش لعقود معدودة فقط، ونقلق بكمية تكفي لعدّة حيوات».

* لسنا مُحصّنين ضد إغراء العجائب والغموض والرُعب: لدينا موسيقى وفن وأدب، نجد أن المُعضلات الأخلاقية الخطيرة يتمّ التعامل معها من قِبل شكسبير وتولستوي وشيلر ودوستويفسكي وجورج إليوت بشكل أفضل من حكايات الأخلاق الأسطورية التي تتخلّلها الكُتب المُقدّسة».

* إن الإيمان ما هو إلّا استسلام العقل، التخلي عن المنطق، ترك الشيء الوحيد الذي يُميّزنا عن سائر الحيوانات الأُخرى.

* ترويعك للأطفال وإظهارك أنّ النساء كائنات دنيئة، هل يُضيف هذا فائدة للعالم؟

* لو كان التعليم الدينيّ ممنوعًا حتى عُمر مُعيّن، لكُنّا نعيش الآن في عالمٍ مُختلف.

* إنّ السُخرية من المُعتقدات أمرٌ ضروريّ، بحيث إنّ الخطوة الأولى لتحرير الأفراد هي القُدرة على السخرية من السُلطة.

* إن الشخص المُتزمّت بصحّة ما يؤمن به مع إدعاء امتلاكه تفويضًا إلهيًا يُبقيه دائمًا على حق، هو شخصٌ لازال في سنّ الرضاعة من عُمر نوعنا البشري.

* لا يبدو الغباء على المُثقّفين إلّا عندما يصوّرون أنفسهم على أنهم: هُم

الوحيدون المُتحضّرون على هذه الأرض.

* ليست الأخلاق أمرًا مُشتقًا من الدين، بل ظهرت قبله.
* أكثرُ الحقائق وضوحـًا حول الدين هو أنه غالبًا ما يتمّ استعماله أداةً بيد رجال الدين لإشباع رغبتهم في ممارسة نوعٍ من السلطة على الناس و اكتساب مكانة في المجتمع.
* تصوّروا أنّنا كنّا لنذهب إلى بيروت لؤلؤة المشرق العربي، المدينة الأكثر تحضّراً وجمالاً وتثقّفاً في الشرق الأوسط ونرى ما يحدث لأسبابٍ مسيّسة، يوضع دستورٌ طائفيٌّ يقول: إنّه يجب دائماً على رئيس لبنان أن يكون مسيحياً مارونياً ويجب على رئيس برلمان لبنان أن يكون دائماً شيعياً وأنّ على رئيس وزرائه أن يكون دائماً سنياً وأنّ للدروز حصّتهم وهلّم جرا.. تاركاً لخوفي في أسفل القائمة الكرد والأرمن.. هذا الدستور الطائفيّ عرّف مواطنة كلّ شخص تبعاً بما يعتنقه من معتقد.. هل أنا بحاجةٍ إلى أن أشرح لكم ما فعله هذا لإعاقة، ولإفلاس، ولزيادة العوز، ولتشويه ما كان يجب أن يكون مجتمعاً سعيداً مثالياً بتعدديته وتنوعه.



الفهرس





الحفلة التي لا تنتهي

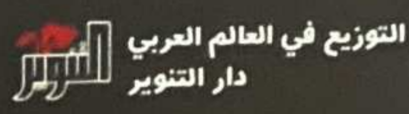
«هذه دعوة للقراءة بتأنٍ، أُقدّم لكم اليوم كاتبًا قلّ المحتوى العربيّ عنه، من يقرأ لهيتشنز سيلتمس مزيجًا من الشجاعة والابتكار، مزيجًا حيّر حتى أعدائه الصريحين -المنطقيين منهم- الذين كانوا يعترفون بكلّ فرصة مُناسبة مُعلنين بأنّه شخصٌ صادق وشُجاع، ليست هذه سيرة حياة كريستوفر هيتشنز؛ بل هي سيرة وفاته، هي كلّ ما سمحت له لحظاته الأخيرة بتضمينه وتقديمه لنا. حيث يجمع هذا الكتاب المقالات الثمانية الأخيرة التي كتبها هيتشنز ووردت تحت عنوان (الفَناء)، إضافة إلى إحدى أكثر المُحاضرات التي قدّمها تأثيرًا، وبعض ممّا قيل بحقّه وحق أعماله. قد لا يحتوي هذا الكتاب على أهمّ الأفكار التي كتبها هيتشنز وجادل بها، إنّما هو تعريف للقارئ العربيّ، برجلٍ يستحقّ قراءة ما كَتب من أعمدة وكُتب، ويستحقّ وقفة تأمل أمام شريط حياته».

داخل هذا الكتاب ستجد إرثاً فريداً من نوعه، إرثَ المقالات الأخيرة لكريستوفر هيتشنز بمواجهة الفناء، وما كُتِب عنهُ بعد فنائه. إنه كتابٌ رائعٌ يدعو للتفكير طويلاً، وللتأمل دائماً!

الناشر

أن تبدأ.. هذا كل ما لديك


ISBN 978-614-472-144-5



التوزيع في العالم العربي
دار التنوير

